

عبد الرزاق كرباكة الشاعر الفنان

الجمهورية التونسية
وزارة الشؤون الثقافية
المؤسسة الوطنية لتنمية المهرجانات
والتظاهرات الثقافية والفنية
منتدى الفكر التنويري التونسي

عنوان الكتاب

عبد الرزاق كرباكة الشاعر الفنان

المؤلفون

* محمد المي
* حمدي الحمادي
* الجليدي العويني
* رشيد الذواذي
* زهير الذواذي
* الحبيب بن فضيلة
* ابتسام الوسلاطي
* رشيد القرقوري
* أنس الشابي

السلسلة

أعلام الثقافة التونسية - عدد 26

عدد الصفحات:

116

إشراف وإعداد

محمد المي
منتدى الفكر التنويري التونسي

الطبعة الأولى :

2023

الناشر

المؤسسة الوطنية لتنمية المهرجانات والتظاهرات
الثقافية والفنية

عبد الرزاق كرباكة

الشاعر الفنان

محمد البي

حلقة جديدة من حلقات أعلام الثقافة التونسية تعزّز أنشطة منتدى الفكر التنويري التونسي واصداراته وتوقف هذه المرة عند أحد أبرز أعلام الثقافة التونسية الشاعر والصحفي والمسرحي وأحد أبطال جماعة تحت السور ألا وهو عبد الرزاق كرباكة.

يعتبر كرباكة من أهم شعراء ثلاثينات القرن العشرين والناظر في شعره يدرك أن هذا « البوهيمي » كان الأكثر انخراطا في قضايا عصره حيث كانت له مواقف معروفة من قضية نزع الحجاب وصرف جزءا من شعره للدفاع عن الصناعات اليدوية التي كانت تشكل العصب الحي للاقتصاد التونسي وتشهد مزاحمة من طرف الصناعات الوافدة وتهدد استقرار الاقتصاد الوطني فضلا عن محاولة سلب هوية التونسي.

مثّلت الصحافة لدى كرباكة منبرا هاما للتعبير وفضح سياسات المستعمر الفرنسي والدفاع عن الهوية وهو ما يكشف وجهها مختلفا لهذا العلم الثقافي الذي يؤكد أن جماعة تحت السور التي عرفت بالبوهيمية كانت منخرطة في قضايا العصر ومتلبسة بالظروف الاجتماعية التي كان التونسي يعيشها في تلك الفترة.

تعامل كركباكة مع المسرح فانتفى للجمعيات وساهم في تأسيسها وكتب النصوص المسرحية وهو ما يدل على انخراطه في هذا الفن الجديد الوافد علينا فكان من أبرز رواده

كل هذا وغيره رشح هذا العلم ليكون مدار اهتمام متدى الفكر التنويري التونسي وقد حاولنا في هذه الندوة أن نتناول جوانب مختلفة من مسيرته الإبداعية عسانا نفى الرجل حقّه اذ لم يعمر طويلا كسائر أبناء جيله وجماعته ولكنه ترك إنتاجا غزيرا نعتقد أن أغلبه لم ينشر رغم المحاولات العديدة التي تصدّت لجمع إنتاجه والتنبية إلى مكانته.

نحاول في متدى الفكر التنويري التونسي أن نقرب المعلومة ونشر القضية وننبه إلى الأهمية وننصف الذين عملوا واجتهدوا وقدموا لتونس ولثقافتها ما يجعلهم في المكانة التي يستحقون من خلالها التكريم والاحتراف. وأنا رغم الجهود التي بذلناها في هذا المنتدى فإننا لم نصل بعد إلى غاية الرضاء عن النفس والاطمئنان إلى ما أنجزنا رغم أن ما نقوم به يعدّ سابقة في تاريخ الثقافة التونسية. سنواصل هذه الجهود وأملنا أن يلتف جمهور النقاد والباحثين حول هذا المشروع الوطني الذي يتجاوز الفرد.

محمد المي

متدى الفكر التنويري التونسي

إنشائية الحياة والحب والموت في مسرحية «ولادة وابن زيدون» لعبد الرزاق كرباكة

حمدي الصايري

كان بودنا أن نتناول بالدرس الأعمال المسرحية الكاملة لعبد الرزاق كرباكة إلا أن ضيق الوقت وشح الوثائق أرغمنا على الاقتصار على مسرحية «ولادة وابن زيدون» (عزالدين المدني ومحمد السقانجي «رواد التأليف المسرحي في تونس» نشر الشركة التونسية للتوزيع 1986 ص 347 - 401) التي تمثل آخر ما ألف قبل رحيله المفاجئ سنة 1945. وهذه المسرحية قد تكفي بالحاجة لأنها حسب رأينا وحسب من اطلعوا عليها نموذج لمشروعه الفني في هذا المجال.

ليس من المبالغة في شيء أن نقول إن عبد الرزاق كرباكة إلى جانب اتقانه للشعر والقصة. هو مسرحي بامتياز. وبصفته تلك كان عضوا في جمعية الشهامة العربية (1919) ثم عنصرا مؤسسا لـ «جمعية الهلال» (1920) وممارسا داخلها لمهمة الملحن والممثل ثم عضوا مؤسسا لجمعية أخرى سنة 1921 قبل أن يلتحق بفرقة «التمثيل العربي» مستفيدا من تجربة جورج أبيض مديرها الفني

آنذاك تأتي بعد ذلك مرحلة الإدارة الفنية للمسرح الكامل (1924) لصاحبه علي بن كاملة مدة سنتين ثم لاحقا معاضدة فضيلة خيتمي في تأسيس في تأسيس فرقها سنة 1928 .

بدأ عبد الرزاق كرباكة رحلته مع التأليف المسرحي في أواسط ثلاثينات القرن الماضي وكتب على التوالي مأساة بعنوان «أميرة المهدية» ثم «عيشة القادرة» (1941) ثم «ولادة وابن زيدون» (1944) التي قدمتها للجمهور فرقة «الكوكب التمثيلي» والتي أسندت بطولتها النسائية إلى الفنانة فتحي خيري.

في تحليلنا لهذه المسرحية ارتينا أن نهتم أن نهتم بإنشائية الحياة والحب والموت بصفتها عنصرا طاعيا فيها ومثيرة للتساؤلات فقد حاول الشاعر (بمعنى المبدع في سرائق الكلمة باللغة اليونانية) عبد الرزاق كرباكة أن يضيفي بصمته الخاصة على مواضيع أزلية كهذه تناولها الفنانون بجميع أصنافهم منذ عهود غابرة وكان بذلك متفردا ومساهما فعلا في إرساء مسرح عربي تونسي.

ماهي إذن مكونات هذه الإنشائية ؟

قد تبدو كلمات «حياة» و«حب» و«موت» فضفاضة لأنها تعني كل ولا شيء. ولكن إذا ربطناها بحقلها الدلالي داخل هذا النص تتبين لنا خصوصيات حضورها فيه وشبكات الإبلاغ التي تشكل بفضلها.

تتمثل مكونات الحياة الواردة في النص في الجوانب الأساسية التالية : السلطة والعشق والاستمتاع بملذات الدنيا ونظم الشعر والمال والدين فالسلطة يمارسها أمير قرطبة أبو الحزمين جهور (1003-1071) بمساعدة وزيره أبو الوليد أحمد بن زيدون

المحزومي (1003 - 1071) وأبو عامر بن عبدوس وابنه أبو الوليد بن جهور. وقد حرص المؤلف على إظهاره في صورة الملك الورع والعاقل والرافض للظلم والتميظ للمخاطر التي تهدد مملكته خاصة منها التي قد تأتي من المعتمد بن عباد ملك اشبيلية. إلا أن قصره لا يخلو من الدسائس والمؤامرات التي يحبكها المقربون منه لبعضهم البعض. أما إدماج العشق ونظم الشعر والاستمتاع بملذات الدنيا من موسيقى وغناء وخمر ولهو فقد تمّ من خلال مجلس ولادة بنت المستكفي (944 - 1091) الذي فتحت أبوابه لأهل الذكر كما كان للمال والدين دور في تعاطي السلطة وفي تأجيج المؤامرات وفي خدمة المشاريع العاطفي.

تتلخص مكونات الحب في الشعور المتبادل بين ولادة وابن زيدون ومحاولة منافسة هذا الأخير من قبل ابن عبدوس والاحساس بالغيرة ولديه من جهة أخرى لدى ولادة حين راودت حبسها فكرة إغواء إحدى جارياتها.

أما الموت فهو حاضر بالغياب

ولأن الحياة هي أساسا الحركة والنمو المتواصل ام فقد تعدد مظاهرها في المسرحية. كيف ذلك ؟ رغم أن ابن زيدون يمثل الشخصية الأساسية كما يؤكد ذلك حضوره الدائم على امتداد تسلسل الأحداث. ارتأى عبد الرزاق كرباكة أن يجعل من ولادة محطّ الأنظار منذ الوهلة الأولى من خلال العنوان : « ولادة وابن زيدون » جعل من الشخصية النسائية محورا ومن علاقتها بالشخصية الرجالية موضوعا يتعلق بهذا المحور. ولو كان العنوان

« ابن زيدون وولادة » لكان الأمر على عكس ذلك. وما هذا الأفراد إلا تمييز للمرأة بصفتها منبعاً للحياة.

يبرز التمثّل الثاني للحياة في اختيار شخصيات وأحداث تاريخية يمثل الالتجاء إلى التاريخ قوة حجاجية تكمن في واقعيته وفي تجسيده للوجود. فالتاريخ أحداث وتحولات وهو بالتالي ماهية الحياة لأن الماضي الذي يصنع الحاضر والمستقبل صنف من أصناف الخلق في المسرحية اتسمت معالجة التاريخ بإدراج أحداث وشخصيات واقعية مع توخي الاختزال والتغيير والإضافة والحذف وبالتالي أصبح التاريخ مادة لينة متحوّلة. فقد تم على سبيل المثال إدراج زيارة ولادة لابن زيدون في سجنه وبوساطة من ابن الأمير العفو عن هذا الأخير شريطة مغادرته للبلاد.

من ناحية أخرى يمكن القول إن الشعر الذي يحتلّ حيّزاً هاماً في المسرحية والذي يتمّ توظيفه أساساً من الغزل عنصراً آخر من عناصر إنشائية الحياة باعتباره خلقاً وإبداعاً من صنف متميّز نظراً لتركيزه على جمالية الصور والتراكيب النحوية وهذا ما يضفي طابعاً على إنشائية الكتابة. وبذلك تصبح الحياة شعراً والشعر حياة ومحركاً للفعل الدرامي من خلال تنافس الشعراء على الحصول على إعجاب ولادة.

نأتي الآن إلى التمثّل الرابع للحياة في المسرحية وهو المشكل في الركيزة الأوتوبوغرافية التي تعتمد على كقوام يتوسط عمله «أوتوبوغرافيا» عنصر «بيو» الدال على الحياة. وبقدر ما كان عبد الرزاق كرباكاً مقبلاً على الحياة بجمالها وملذاتها وينابيعها الثقافية ومشغلها اليومية والفكرية والعاطفية بقدر ما كان حريصاً على تضمين ذلك في مسرحيته لبناء منظومته الدرامية. فقد طبع المؤلف

هذه «الرواية» (كما يقال وقتها) باستحضار لأصوله الأندلسية وبالتماهي بينه وبين ابن زيدون فكانت نقاط التشابه بينهما كثيرة.

فقد ابن زيدون أباه وهو صغير السن فرباه جده وكانت له علاقة متينة بأمه. كذلك كان الأمر بالنسبة إلى كرباكة الذي فقد والده باكرا فكلفه عمّه ودلتته والدته. وكلاهما كتب الشعر واعتنق مذهب اللذة والمتعة مع الالتزام بالجدية في العمل. غياب الأب كان وراء حضور شخصية واحدة لها هذه الصفة في المسرحية وهي شخصية أمير قرطبة مع تواتر لكناية «أبو» و«ابن» رغم أن الشخصيات المذكورة لم تحمل في المسرحية صفة الأبوة ويكمن وراء كل هذا تساؤل وجودي حول الذات وبالتالي حول الحياة. لكن تبقى هناك فوارق بين المؤلف وصنوه في المسرحية فكرباكة لم يكن وزيرا ولم يعشق امرأة شبيهة بولادة.

للحياة تمظهر آخر في المسرحية يمكن تسميته بالتثليث فهي مقسمة إلى ثلاثة فصول تدور أحداثها في ثلاثة أماكن (قصر الأمير، مجلس ولادة، السجن) وفي ثلاث فترات خلال نفس اليوم بين ثلاثة فاعلين (ابن زيدون ومنافسه بن عبدوس وولادة) بمساعدة ثلاثة مساندين (الأمير في مرحلة أولى وابن الأمير والسجان) وبتدخل ثلاثة معرقلين (المنافس والغلام والأمير في مرحلة ثانية) وهذا التواتر للعدد الفردي يضيف على المسرحية حيوية دائمة وتحولا مسترسلا لا تتركان للتوازن والاستقرار مكانا.

نمر الآن إلى إنشائية الحب في المسرحية وهي من صنف السهل الممتنع إذ أن كرباكة قد استخدم عناصر متداولة قد تبدو خالية من الطرافة إلا أنه استعملها كاستعارة لمقاصد أخرى تنم عن رؤية للعالم. والمجلس الذي يجتمع فيه رواد بيتها تقول ولادة

إنها من أهل الحبّ العذري : «ولادة لكم جميعا كالزهرة بينكم.. فلا تشموها ولكن شموها من ربّاه هكذا على بعد. وإلا فهي الوردّة الشائكة تنال من قاطفها بشوكها، فوق ما يناله من طيبها. هكذا تريد أن تحيا ولادة، هكذا تشاء أن تكون ملكة الجمال والعفة.. ومملكتهما الأدب والفنّ ورعيتها آل الظرف والذوق » (ص 376-377).

هذه الصورة للمرأة المثالية التي يستحيل الوصول إليها هي تجسيد لأسطورة الجنة الضائعة الحاضرة في مخيال الإنسانية عامة، في الشعر الباروكي وفي ذهن العرب حين يستذكرون الأندلس. غير أن هذا الحبّ العذري لا يزيح الغيرة من الجانبين الرجالي والنسائي، غيرة ابن عبدوس من ابن زيدون وغيره ولادة من الجارية السمراء التي استهوت هذا الأخير وفي ذلك تعبير عن رفض الإقصاء والموت. وهذه الغيرة دفعت بابن عبدوس إلى التنافس وهذا فعل يدلّ على البحث عن تأكيد الوجود. وقد يكون لدور ابن عبدوس دلالة أبعد من ذلك إذ يمكن اعتباره صنوا لابن زيدون وصوتا للغيرية داخل نفس الشخص يحيل على تجاذب الإنسان بين الشك واليقين، بين هوية وأخرى. وقد يأخذ هذا المنحى ذلك الانجذاب لشخص آخر غير الحبيب كما توحى تصرفات ابن زيدون.

من هنا تتسرّب فكرة استحالة الوفاء في الحب التي قد يكون استقائها كرباكة من النظرة الباروكية الإنسانية للحياة والتي تعتبر العالم مسرحا دائم التحول لا يستقرّ على ثبات وفيه يؤدي الإنسان أدوارا متعددة حتى وان كانت متضاربة أحيانا ولا عقلانية.

تجدر الإشارة أيضا إلى أن كرباكة ضمّن في الفصل الثالث نونية ابن زيدون المشهورة والتي مطلعها :

أضحى التناهي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا (ص390) وذلك بعد أن زجَّ به الأمير في طي السجن. في التعبير عن هذه النهاية الدرامية للحبِّ رأي أحمد عبد اللطيف حسين أن النون حرف أنفي نصدره أثناء البكاء من شدة الولع والفراق وأن الشاعر هذا الصوت كمخرج للحزن الذي يحمله بين جوارحه.

وقد استعمل كرباكة هذه الميزة لتجسيد ما ذهب إليه أرسطو حين أكد أن التراجيديا تهدف إلى تماهي المتفرج بالبطل وبالتالي إلى تطهير هذا الأخير عن طريق ما يسمى بالكاتارسيس الناجمة عن الشعور بالرعب والشفقة إزاء الآلام التي تكابدها الشخصية التراجيدية. إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن المؤلف لم يرتفع بالمسرحية إلى مستوى المأساة فتجنّب النهاية بالموت واكتفى بالدراما وبدموع الميلودراما بعد أن عفا الأمير عن ابن زيدون وأرغمه على النفي.

والوضعية هذه، كيف لنا إذن أن نتحدّث عن إنشائية الموت في المسرحية ؟

كما أسلفنا في هذه « الرواية » الموت حاضر بالغياب. ولعلّ ذلك أوّل تمظهر لهذه الإنشائية لأن الغياب يكون أحيانا أقوى من الحضور وكأن المؤلف قد استشعر قدوم المنيّة سنة قبل أن تختطفه في عمر الأربعينات. في غياب الموت المادي والملموس تعددت أشكال الموت المعنوي في النص. ومنها الجنة الضائعة التي تعرضنا لها من خلال الحب العذري وكذلك النفي بصفته انقطاعا للصلة بالوطن الأم وكذلك اندثار السلف وغياب الخلف كما تجسّد ذلك شخصية ابن زيدون القائد للأب ثم للجد والأم

والفاقد لصفة الأب. وهي نهاية لم يهزمها سوى شعره الذي كتب له الخلود.

بعد هذا التحليل السريع الذي حاول أن يبيّن الترابط بين المواضيع الثلاثة قد تبدو نسبة الإنشائية في مسرحية «ولادة وابن زيدون» ضئيلة بعض الشيء. إلا أن هذا الحكم لا يأخذ بعين الاعتبار تاريخية هذا العمل ولا شروط جمالية التقبل التي تتحكم بصفة قبلية في كل إنجاز فني.

تتتمي فترة أربعينات القرن العشرين التي كتب خلالها كركباكة نصّه إلى مرحلة السنوات الأولى في عمر المسرح العربي التونسي وهي بالتالي فترة اكتشاف وتعلّم وتدرّب وتجريب وتساؤلات لا تسمح بأن يكون للمؤلف خيارات فنيّة واضحة وإطلاع واسع على اتجاهات الغرب في هذا المجال. وبناء على ذلك ينصرف اجتهاد الكاتب إلى محاولة التعبير عن الشواغل المحلية الآنية. نظرا لمعاناة تونس من الاستعمار الفرنسي منذ 1881 ولما عاشته من أحداث زمنية سنة 1939 ولما شهدته من تدهور للظروف المعيشية جراء الحرب العالمية الثانية.

كان لزاما على العمل الفني أن يخصص مساحة هامة لإشكاليات الهوية المهمّشة من خلال تمجيد الماضي المزدهر والترفيه عن النفس بواسطة الشعر والغناء والموسيقى والتغني بالمشاعر النبيلة يضاف إلى ذلك أن مسرحية «ولادة وابن زيدون» وليدة لحركة جماعة تحت السور وما يجمع بين أفرادها من توق إلى الحرية وثورة على المنظومة السائدة في شكل تمرد يبرر الممارسات والمطارحات الفكرية والإبداعات الأدبية.

وإلى جانب ما تفرضها عليها تاريخانيتها تأثرت كتابة كركباة
عن وعي أو غير وعي بشروط جماليات التلقي ومنها التعامل مع
أفق الانتظار سواء بالتجاوب التام أو بالانزياح الجزئي أو بالرفض
الكلي. وقد انتهج المؤلف الطريقة الأولى ويعزى ذلك في نظرنا
إلى حداثة علاقة جمهور تلك الفترة بالمرسح.

لذلك عمل كركباة على توفير أسباب نجاح كل مسرحية لدى
المتفرج فتوخى التبسيط في الأحداث (كمين فوقوع في الكمين
فعقاب) واحتفى بالتاريخ العربي المضيء مداعبا بذلك أوتار
الهوية وأدرج شعرا وزجلا مشهورين لدى أغلبية المثقفين وداعب
مشاعر العشق بحثا عن الرومانسية والميلودراما واجتنب أن يلتزم
بتيار أو بجنس أدبي أو فني دون غيره.

أخذ من الكلاسيكية وحدة الزمان وأسقط وحدة المكان
والعقدة ومزج بين التراجيديا والدراما وكوميديا القرن السادس
عشر الإسبانية ودندنت شخصياته على أنغام موسيقى تشنّف
أسماع المتفرجين.. إذ لم تكن انتظارات هؤلاء من المسرح الإجابة
عن تساؤلات ميتافيزيقية أو إحياء عوالم ميشولوجية يطغى عليها
العنف والإفراط بل ترفيهها عن النفس لا غير.. وقد نجح كركباة إلى
حد كبير في تلبية هذه الانتظارات مع الحرص على ترسيخ المسرح
- هذا الفن الجديد علينا - في المشهد الثقافي.

ماي 2023

كرباكة ، شاعر الأغاني

بقلم الجليدي العويني

عاش عبدالرزاق كرباكة حياة حافلة بالعطاء في مجالات شتى فهو الصحفي والمسرحي تاليفا وتمثيلا وادارة وهو الشاعر بالفصحى واللهجة ، وإن تناول الملحنون قصائده في نمطي قوله فإنّ الغالب عدديا كانت أشعار اللهجة او ما أطلق عليها بالأزجال التي أغرت أهل الغناء وجعلت كلماته تحلق على أنغام الملحنين وأصوات المطربين. ونتطرق في هذه المداخلة إلى تجربته في هذا الضرب من القول.

بدأت علاقة كرباكة بشعر اللهجة في فترة مبكرة حسب شهادة المسرحي محمد الحبيب الذي يقول «مارس (كرباكة) منذ بداية العشرينات نظم قطع فكاهية... راجت في الاوساط لما فيها من روح الدعابة والفكاهة» ⁽¹⁾

واستطاع مع السنوات تطوير أسلوبه ومراكمة رصيده حتى أصبح أحد رموزه إذ يقول مصطفى خريف « قضى كرباكة شطرا مهما من عمره يعالج هذا الفن ويفتح مضايقه ويروض شوارده إلى ان استخلص لنفسه مذهبا بلغ فيه شأوا عظيما واستوى في أعاليه

(1) محمد أنور بوسنييه ، عبدالرزاق كرباكة ، حياته وتراثه ، سلسلة ذاكرة وابداع (6) ، وزارة الثقافة. المركز الوطني للاتصال الثقافي - تونس 1999 ص 37.

فوق عرش كبير... بل ان كرباكة كان يعتد بنفسه في هذا الباب أكثر من إعتداده بنفسه في باب الشعر الفصيح»⁽¹⁾

وقد تكاملت قدراته الابداعية مع علاقته الوطيدة بأهل الغناء لتساعد على تموقعه كمؤلف أغان جزيل العطاء متعدد الشركاء. ويظهر قربه وتعاونه مع الوسط الموسيقي حتى خارج الإنتاج الغنائي وتكفي الإشارة إلى أن أول فرقة مسرحية أسسها سنة 1921 كان من بين شركائه فيها محمد عز الدين المغني المصري وحبوبة مسيكة المغنية الشهيرة ، بل انه كان حاضرا أيضا مع المغنية فضيلة خيتمي في تأسيس فرقتهما المسرحية الحاملة لاسمها سنة 1928 ، ومع انضمامه إلى جماعة تحت السور التي أخذت على نفسها أن ترتقي بالشعر الغنائي تشكلت كل العناصر لتجعل من كرباكة علما في الكتابة الغنائية حتى لقب بشاعر الغناء والمسرح.

وإن كان إطار إبداعه المسرحي في مجموعة من الفرق المسرحية وأرضية بروزه كشاعر لهجة من خلال الصحف التي كتب فيها مثل الزمان والمضحك... فإن الرشيدية والإذاعة مثلا الإطار الأنسب لصناعة صفة مؤلف الأغاني لكرباكة.

كرباكة شاعر الرشيدية والإذاعة

كان كرباكة من أول من لبوا النداء عندما ظهرت فكرة تكوين الرشيدية كمؤسسة موسيقية حريصة على تجديد النص الغنائي وتطهيره من شوائب مستهجنة ، يقول محمد لصرم في محاضرة قدّمها بالمسرح البلدي بتاريخ ماي 1934 (أشهر قليلة قبيل اعلان

(1) نفس المرجع ص 37.

تأسيس الرشيدية) «... فالواجب علينا أيها السادة المحافظة على موسيقانا الخاصة بنا، فهي عنوان شرفنا وأنموذج رقيتنا الفكري والأدبي...».

فقد كان كرباكة من بين من حضر والاجتماع التأسيسي الأول للرشيدية واحد أعضاء ناديها الادبي الاول الذي تراسه العربي الكبادي وضم في من ضم مصطفى آغا، الشاذلي خزندار، محمود بورقية، جلال الدين النقاش، علي الشراد، الطاهر القصار... وقد كان حضوره في هذه الجمعية بارزا وتجاوز اللجنة الادبية إلى رديفتها الموسيقية بشهادة رئيس الجمعية مصطفى العكاك عندما قال يوم موت الشاعر: «من الواجب المفروض أن أعرب عن الأسف العميق الذي بثّه بالمعهد الرشيدي موت شاعرنا المُجيد، كيف لا وهو شخصية بارزة من بين اعضاء الجمعية العاملين وأحد أركان اللجنتين صاحب الإنتقاد الرائق والقول الوجيه... إن زيارته لا تمر بدون أثر بل يبقى له كل مرة رثّة وصدى»⁽¹⁾

كما كان كرباكة من اوائل المتعاملين مع الإذاعة الفتية كمؤلف طيلة السنوات القليلة التي فصلت بين تاريخ تأسيس الإذاعة التونسية في 1938 وتاريخ وفاته في 1945، وإن لم تكن الإذاعة في بداياتها جهة منتجة فإن ما صاغه شاعرنا مع أصدقائه الموسيقيين من أبناء جماعة تحت السور وغيرها مثل رصيدا مهما في إنطلاقة الإذاعة الفتية التي كانت تدعو المطربين والمطربات لتقديم أغانيهم. وكان أغلبهم يجيئونها بكلمات كرباكة حيث غنى علي الرياحي (شكيت وانا ماريت) والهادي الجويني (كي بغيت تطير يا حمامة ومكتوب عذابي آش لخريا مكتوب) والصادق ثريا (من توه خيرا حوا أمّا

(1) نفس المرجع ص 58

آنا والا هو...) وفضيلة خيتمي (راقب صنيع الدهر يا متحوفة ، راو كل شي طغى لازم يوفى) وفتحية خيرى (لاغيت بيك القلب يا محرمتها)...

وقد طغت مؤلفات كرباكة على تلك المرحلة بشهادة أحد زملائه البارزين الصحفي وشاعر اللهجة الهادي العبيدي الذي كتب في مقدمة كتيب طُبِع في الخمسينات على نفقة الكتبي الشاذلي الزواق عنوانه «الفوج الأول من أغاني كرباكة» : «أريد أن أسجل كلمة الحق والتاريخ على هامش هذه المجموعة حول النهضة الغنائية بتونس التي انبثق فجرها منذ عشرين سنة تقريبا والتي تعد هذه المجموعة (الشعرية) من أبرز آثارها ويُعدُّ مؤلفها (كرباكة) من أكبر زعمائها»⁽¹⁾

رصيد كرباكة

لم يكن كرباكة ممن يحرصون على تجميع وتوثيق رصيده لسبب او آخر وربما لمزاجيته حيث يقول محمد الحبيب : «كان كثيرا ما تجول برأسه فكرة ويفاتح بها أصدقاء ثم يفاجئهم في الغد بمطلع القصيد وفي المساء يعدل عنه بفكرة جديدة وهكذا...»⁽²⁾ ويقول عنه عثمان الكعاك : «ولكن كرباكة لا يواصل العمل ولا يتخذ من نبوغه ومن اندفاعه استرسالا متتابع الحلقات محكم الصفات»⁽³⁾ ولذلك

(1) عبدالرزاق كرباكة ، الفوج الأول من أغاني كرباكة ، جمع وتقديم الهادي العبيدي ، طباعة على نفقة الكتبي الشاذلي الزواق
(2) محمد أنور بوسنييه ، عبدالرزاق كرباكة ، حياته وتراثه ، سلسلة ذاكرة وابداع (6) ، وزارة الثقافة. المركز الوطني للاتصال الثقافي - تونس 1999
ص 37.

(3) نفس المرجع ص 37 قلا عن مجلة الشريا عدد 4 افريل 1945 ص 26

فإن رصيده في التأليف الغنائي قد يفوق ما وجدنا من خلال البحث في سجلات مغنين وملحنين بكراسات خزانة الإذاعة وبالمؤسسة التونسية لحماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة وما أورده الهادي العبيدي في مجموعة الفوج الأول من أغاني كرباكة وما قدّمه محمد بوذينة في كتابه رواد الشعر الغنائي

ففي المؤسسة التونسية لحماية حقوق المؤلف والحقوق المجاورة وجدنا هذه المصنفات المصرح بها:

عنوان المصنف	مؤلف أغاني	ملحن
هوى هوى	عبد الرزاق كرباكة	
هوني والدنيا هنيه	عبد الرزاق كرباكة	سيد شطا
مكتوب يا مكتوب	عبد الرزاق كرباكة	الهادي الجويني
ما ثناها	عبد الرزاق كرباكة	سيد شطا
يا محرمتها	عبد الرزاق كرباكة	محمد التريكي
يلي تعرف قلبي علاش	عبد الرزاق كرباكة	الهادي الجويني
شكيت وأنا ما ريت	عبد الرزاق كرباكة	علي الرياحي
يفيق الحب	عبد الرزاق كرباكة	علي الرياحي
كي بغيت اطيروا حمامة	عبد الرزاق كرباكة	الهادي الجويني
قولوا لحواء	عبد الرزاق كرباكة	محمد التريكي
من توا خير يا حواء	عبد الرزاق كرباكة	الصادق ثريا
كسرت الكأس	عبد الرزاق كرباكة	الهادي الجويني

علما وان شاعرنا انخرط في منظومة حماية حقوق المؤلف بتاريخ 28 مارس 1942 حسبما هو مشار في ملفه بالمؤسسة. وفي دفاتر الاذاعة توجد نفس هذه الاعمال مع :

اسمك يا تونس يزيان بدقلة توزر	عبد الحميد السلايتي
الندم ما بقاش يفيدك	محمد التريكي
الوداع ، يا حياة الحب في قلب مضاع.	سيد شطا
يا هاتره بالعين	سيد شطا
آخر دمة في عيني ، نبكي بيها عليك وعلى	الهادي الجويني

وقد ذكر له الهادي لعبيدي نصوصا أخرى قد تكون ظلت دون تلحين أو لحّنت ولم تودع في سجلات المؤسساتين (حقوق التأليف والإذاعة) مثل :

اللي يحب ينال مرادو ، يلبس من مصنوع بلادو
يسلم حجرك يا لميمة ، ان شاء الله عامر ديمه ديمه
عاقد ذيل حرامو ، العاتي سيد القوم
قالولي وقتاش اتوب، قتلهم شوف المكتوب
غزالي اللي جاني على بالي ومنعوه اماليه
ياجاره جارك، محروق بنارك
عيون الغنجة تحت الخامة
كي ما غويتيني يا عيني، اليوم ذاب كيني داويني .
راقب صنيع الدهر يا متحوفة
اليوم انزاد رحمه للعباد سيد لسياد

كيف زهدت فيه ردو يروح .
كيف ما كان جُفَاكُ ورضاكُ
بعد العشرة يا زقطية ، يهون عليك تخلي بيَّ .
يا خليله كي جفتني ناسك
عمري ما ننسى ليلاتك
ماعادش في الدنيا كيف، هكه وهكه كيف كيف .
يا دموعي يادموع العين هماله
راجع هواك رغم اللي كان .
وازي الغنم يا قايده في الولجة وسن الجلم اليوم عرس المرجه .
على ولقتو نوح حُمام الفلّه
تعيش صورتك يوم الذي في حبي
كفكفت دموعي درقه على اعدايا .

وحسب هذه المراجع المعتمدة خلُصنا إلى أن كبراكة تعامل
مع الملحنين: سيد شطا، الهادي الجويني البشير الغرايري، علي
الرياحي، فضيلة خيتمي، علي السريتي، قدور الصرارفي، صالح
المهدي، محمد التريكي، الصادق بن سالم والصادق ثريا .

إن مدوّنة كبراكة في شعر اللهجة ثريّة متنوعة الأغراض وهو ما
فتح مجال نقدها وتقييمها من مجايله فقد حظي شعره الملحن
بالتمجيد والثناء يقول الهادي العبيدي « وشعر عبدالرزاق (كبراكة)
لا يحتاج لتعريف او تقديم فقد شنف الاسماع ولفت انتباه الجيل
بما يتمشى في صدوره (الشعر) وأعجازه من حيوية جامحة وفتوة

مشبوبة وتجديد رشيد⁽¹⁾ «ونوّه مصطفى خريف :» وأتاه طبع اللين
ولطف ذوقه وابدع فيه أيما ابداع⁽²⁾.

ولكنّ اندفاع كرباكة وجرأته على التطرق إلى مواضيع وأشكال
كتابة بعيدة عن بيئته الحضرية جعلت بعض نصوصه لا تخلو من
افتعال مثلما هو الحال في نصه الواصف لجز الأغنام حيث يقول:

وازي الغنم يا قايذة في الولجة
وسنيّ الجلم اليوم عرس المرجه
نجع تورّد

اللي سمع فزع وجايتزرد
لجلام والكراع واللي يعقد
وذر الحنينه اللي بدا يتهجي
عيد الصويفه الحال فيه تقعد
بين البيوت وعرضوا بالفرجة

فأين هذا من بلاغة شعر راع بدو يقول واصفا لحظة الجز
تسّارب عليه الضان جلم جديد مسماره ذهب
سالت دموع الذيب على عناق بيضة في الغلم⁽³⁾

(1) عبدالرزاق كرباكة ، الفوج الأول من أغاني كرباكة ، جمع وتقديم الهادي العبيدي ، طباعة على نفقة الكتيبي الشاذلي الزواق ص2
(2) محمد أنور بوسنينه ، عبدالرزاق كرباكة ، حياته وتراثه ، سلسلة ذاكرة وابداع (6) ، وزارة الثقافة. المركز الوطني للاتصال الثقافي - تونس 1999 ص 38.

(3) كانت النعاج تتوالى على المقص الكبير (الجلم) المشدود بمسمار ذهبي
فتخرج بعد جزها بيضا تثير شهوة عناقها عند الذئب

و حيث ما أفلح (وقد أفلح كثيرا) او اخفق (وهو اخفاق نسبي بتقييم ذوقي) فإن كرباكة مثل في شعره المصاغ باللهجة علامة في زمانه وجيله وظلت أعماله مستمرة نردّها إلى يومنا هذا وظل اسم كرباكة مرجعا يستشهد به ويُرجع إليه حتّى أن أحد صحفيي جريدة الفرز وكتب مقالا مستحضرا فيه روح كرباكة بعد سنوات من موته ليحاوره ويشكو له تراجع كلمات الأغاني بعد عقد من غيابه⁽¹⁾ وهو الذي:

زان المسارح والمغاني شعره

فغدا لأدهم ليلها نبراسا

قد عالج الأزجال حتذى صانها

أن تحوي الأرجاس والأدناس

مثلما ورد في الرثائية التي القاها عبدالله الزناد في موكب أربعينية كرباكة.⁽²⁾

(1) جريدة الفرز و عدد 17 أكتوبر 1955

(2) محمد أنور بوسنييه ، عبدالرزاق كرباكة ، حياته وتراثه ، سلسلة ذاكرة وابداع (6) ، وزارة الثقافة. المركز الوطني للاتصال الثقافي - تونس 1999 ص 38.

عبد الرزاق كرباكة..

تاريخ وذاكرة !..

(1901-1945م)

رشيد الزوادي

في حكايات الأجيال :

كلما عدنا بالذاكرة إلى فترة الثلاثينات والأربعينات.. تشدنا حكايات وذكريات عن جيل صامد ؛ تجند لغرس البذار الصالحة للمقاومة والجهاد، وللتخفيف من موقع المصائب والأحزان على شعبنا الأبوي ؛ الذي استمات من أجل ما ننعم به اليوم من سعي حميد في تكييف أنفسنا.. وفيما نراه يتجدد من صور شائقة في حبّ وطننا وإسعاد أجيالنا.

فجيل الثلاثينات والأربعينات في تونس - والذي عاش فيه الأديب عبد الرزاق كرباكة-؛ هو جيل ناثر أبى وعن قناعة، أن يكون مستسلما لقوى القهر والإستبداد ؛ كما نادى بصوت عال وقوي برفع المظالم، عن العباد، وبمنح حقوق العمال والطبقة الكادحة.. وبالثورة على الرجعية، وبإكرام المرأة ك : (أم، وزوجة، وبنت، وأخت، وإنسان..)، وحث على تعليمها وتربيتها ؛ لتكون نبراسا

نستضيء به، وساعية في نشر الفضائل، ومعززة للطموح الفكري،
ومنارة للأجيال !!..

فتلك هي بعض رغبات هذا الجيل الثائر؛ والذي تحدثت الأفلام
عن صموده، وغيرته الوطنية، وعن دفاعه عن الوطن، برباطة جأش
واستماتة في معارك المقاومة كأحداث : (الجلاز)، و(9 أفريل
1938م)، ومعارك : (بنزرت، و صفاقس، وقفصة، وبرقو) وغيرها
من المحطات التاريخية.

ونحن...وفي مراحل متابعتنا لنضالات هذا الجيل؛ كنا أدركنا
تأثره بأدبيات المراحل النضالية؛ التي قادها الحزب الدستوري
بشقيه (القديم والجديد)، وبمشاركة المنظمات القومية الكبرى
كالإتحاد العام التونسي للشغل، واتحاد الصناعة والتجارة،
والحجرة الفلاحية، والنخب الفكرية المتواجدة في الجمعيات
الأدبية والروابط الزيتونية، والحركة الكشفية وغيرها...

هذا وفي متابعتنا لتاريخ هذه الفترة علت أصوات الشعراء
والأدباء والكتاب والصحفيين في الساحات، وأصبح لها صدى
واسع؛ وبالخصوص، كتابات: حسين الجزيري، والهادي
العبيدي، وعلي البلهوان، ومحمد الشاذلي خزنة دار، وأبو القاسم
الشابي، والطاهر الحداد، ومصطفى خريف، ومحمد الفاضل بن
عاشور، وعبد الرزاق كركباكة وأضرابهم..

كما ردّد «الشباب التونسي أناشيد المقاومة والنضال، وعبر عن
عشقه لـ (صوت الشابي)؛ شاعر تونس الملهم في قصائده الوطنية،
ولـ (صوت الطاهر الحداد) المصلح الاجتماعي، والشاعر في
دفاعه عن أمته المهددة بالتجنيس في عام 1932م... ويومها عاش

حزين القلب نتيجة لما شاهده من عنت وقسوة في بلاده، وما أمضته
قهرا يد الدهر ؛ لذلك شاهدناه في صيحته المدوية يقول !

أفق أيها الشعب المهان فقد أتوا؟

إليك بتجنيس لعلك تخدع

وأيد لهم بالحسّ إنك ماجد

وإن كنت في بؤس فجنسك أرفع

• وفي الإشادة بوطنه قال :

أفديك يا وطني بالنفس والمالي

مما يسومك سوء فيه إذلالني

أفديك يا وطني، أفديك يا سكاني

بك اعترازي، وفيك اليوم آمالي

إنّي بخدمة أوطاني أذبّ على

قوم، وأهلي، ومجدي الشامخ العالي..

شربت حبّ ديارني منذ نشأت بها

طفلا وقد عمّ أحشائي وأوصالي

كما شاهدنا محمد الشاذلي أمير شعراء تونس (1881-

1954م) يسير وفق هذا النهج ؛ فعبر في أشعاره عن مطامح شعبه

في الحرية.. ونبهنا إلى مناورات المستعمر وتقلباته، وإلى عقبات

تحقيق هذه الحرية المنشودة حينما أعلن بصوت غاضب :

يروح مقيم * ويغدو مقيم

وشعب يئن * ولا من رحيم !

ووجدنا في هذا الطور أيضا من الكتاب والأدباء، من بادر بإصدار
صحف مهمة كالهادي العبيدي صاحب (الصريح) : وهي جريدة
أسبوعية جامعة دام صدورها ثلاث سنوات من (1949 / 1 / 23)
إلى 30 مارس 1951م)، وجملة ما صدر من أعدادها 85 عددا..
أما منهجها السياسي ؛ فقد لخصه الهادي العبيدي في افتتاحية العدد
الأول : بتاريخ (1949 / 1 / 23) وحدده فيما يلي :

- أولا : مناصرة القضية الوطنية.

- ثانيا : الوفاء لتراث الأمة الحضاري.

- ثالثا : توخي الصدق وقول الحق في كل ما يكتب فيها.

أما أبرز كتاب هذه الصحيفة فهم : العبيدي، والمهيدي،
ومصطفى خريف، ومحمود بورقيبة، وأحمد رضا حوحو، وزكي
طليمات، وعلال الفاسي وأضرابهم..⁽¹⁾.

كما وجدنا من الأصوات الثائرة في هذا الطور : علي البلهوان :
(1909-1958م) والشاعر الكبير عبد الرزاق كرباكة.

و(كرباكة) كما هو متعارف لدى الناس ؛ هو فنان موهوب
من زمان مضى عالج قضايا اجتماعية مهمة في وطنه، وله أشعار
وأزجال قوية في مواقف التحدي، وترك لنا في تراثه الأدبي ؛ سواء
في الكتابة للمسرح والأغاني، أو في ملاحم النضال ما تزهو به

(1) راجع : (جماعة تحت السور) : رشيد الذواودي ط. القاهرة (الهيئة العامة
للكتاب 2004) ص 96.

الأيام.. وهي ماثلة ومتألقة أمامنا حينما نقرأها بتأن.. وصداها عال
في نتاجات (جماعة تحت السور)، وفي دورياتهم ك: (السرور)،
و(السردوك)، و(العالم الأدبي)، و(الأنيس)، و(الزمان)،
و(المضحك)، وحتى في (مجلة الثريا) وغيرها من المجلات
التونسية الرائدة.

وشهرة (كرباكة)؛ هي منتشرة في عديد البلدان العربية.. وهذه
الشهرة إكتسبها من كياسته، ومن عشقه للأدب، ومن مؤازرته،
وموقفه الشهير في نصيح صديقه (معروف الرصافي) شاعر العراق
الشهير يوم تناقلت الأنباء في عام 1929م أخبار بغداد بخروج
(الرصافي) شاردا في الفيافي والصحاري لما لاقاه من عنت في
(مجتمع بغداد).. خاطبه في لوعة وأسى نصوحا ومرشدا يقول:

فيما فرارك والعراق كما ترى

زين البلاد، وأهله زين الوري

معروف، راجعها العزيمة مرّة

وأنا الضمين بأن تفوز وتظهرا

هذا قرارك قد أثار حفاظا

في الشرق تكبر من صنيئك ماجرى!..

في تونس، في مصر، في سورية

في فاس، في بغداد، في (أم القرى)

معروف.. وقفة ساعة نقضي بها

بعض المواجه ثم نعتزم السرى

إنني أقاسمك الحياة مريرة
وتضيق بي هذه المدائن والقرى
ومنها :

(شيخ الرصافة!) جلّ ما تصبو له
أتريد أن تلقاه سهلا أيسرا؟..
أين البطولة عند ذاك ؟ وأين
يلقى المجاهد وهو يقتحم الذري؟..
أنت الذي أدمى الحياة دعاية
للإتفاق مناديا مستنفرا
ترتدّ عنها اليوم في يأس وقد
قرب الجناء نتاجها وتهصرا؟..

وبهذا الموقف الشجاع والنصيحة المخلصة أصبح ابن تونس
عبد الرزاق كرباكة أحد فرسان العرب الأوفياء ؛ الذين عززوا الرأي
السديد في معالجة أوضاع المحنة. ومما حكاه لي البعض من
أصدقائي في بغداد، ومنهم الصديق الشاعر (محمد جواد الغبان)
صاحب الدواوين الشهيرة في الغزل: (أنت أبهى)، و(أنت أحلى)،
و(أنت أغلى) ؛ أن معظم شعراء العراق مازلوا يشيدون بـ (كرباكة
الشاعر) وبموقفه في تلك المحنة.

وهنا.. فلسائل أن يسأل : ومن يكون (كرباكة؟؟)؟.. وماهي
مساراته واتجاهاته الفكرية في دنيا الناس؟.. وفي هذا أقول في
نشأته وتعلمه :

النشأة والتعلم :

هو كاتب يعتز برأيه كثيرا، وأديب متميز، وشاعر تكونت روحه الشعرية بسبب شغفه بالفن البلاغي.. وميلاده كان بمدينة تونس في عام 1901م.. وتوفاه الله بها يوم 15 مارس 1945م).. و(كرباكة)⁽¹⁾ تحدث عنه أكثر من واحد من المؤرخين والأدباء أمثال : زين العابدين السنوسي، ومحمد الفاضل بن عاشور، والهادي العبيدي، وأبو القاسم كرو، وح ح وعبد الوهاب، ومصطفى خريف، وعز الدين المدني ؛ ورشيد الذواوي القائل عنه في كتابه (جماعة تحت السور) هو: (من عائلة أندلسية).. والعائلة كان لها امتداد وثيق بالبلاط العبادي في (إشبيلية) ؛ وقدمت إلى تونس عام 1017هـ (1608م) فرارا من التنصير.. و(الوسط الأندلسي) ؛ الذي عاش فيه الشاعر ؛ كان معظم أفراده يحترفون (صناعة الشاشية).. وتلقى دراسته الأولى في (المدرسة القرآنية الأهلية) فيما بين أعوام (1907 و1911م)، ثم انتقل إلى (المدرسة العرفانية) ؛ أين باشر ثقافته الأدبية الأولى عن شيخه محمد مناشو؛ الذي حَبَّب إليه فنون الأدب؛ خاصة الشعر.. ومن تلك المدرسة تحول إلى التعليم الزيتوني : (1917-1921م) ؛ ولكنه لم ينه دراسته هناك لسببين إثنين هما :

(أ) قلة إمكانياته المادية بسبب وفاة أبيه سنة 1908م.

(1) كرباكة : اسم لقرية صغيرة تتواجد في شمال (مدينة مرسية) بالأندلس، وكانت تسمى بالقاف لا بالكاف : (لقارباقة) : (معجم البلدان) لياقوت الحموي

(ب) هيامه بالفنون والجمال وبالأدب خاصة.

لكن.. وبالرغم من كل هذا وذاك - وتوجيه من أستاذه محمد مناشو.. درّس كرباكة في المدارس القرآنية، ثم التحق فيما بعد (بإدارة مشيخة المدينة).. ثم بالحجرة التجارية بتونس⁽¹⁾، ومنها تفرغ للصحافة والأدب والمسرح والفن؛ فكان من

• أولا : من (جماعة عسكر الليل) :

و(جماعة عسكر الليل) : هم جماعة من الأدباء واطبوا على حضور حفلات المطربة (فضيلة ختمي) الأسبوعية في (مسرح بن كاملة)، بعدما أخذت هذه الفنانة تنافس (حبيبة مسيكة)، و(جماعة عسكر الليل)، تعودت في هذه المرحلة على الحضور في المسرحيات والأعراس، وحفلات الختان، إلى جانب فناناتهم ؛ ليصفقون لهن، ويولون ويهتفون تشجيعا لهن على المزيد من الغناء والطرب.

وقصّ علينا الأديب الكبير الهادي العبيدي عن حفل حضره من حفلات (فضيلة ختمي).. فرأى (كرباكة) بجبته وطربوشه، وهو يكثر من التصفيق والهتاف مع (كبانية البراشن) ؛ فاشمأز⁽²⁾ منه، وكرهه كرها شديدا قبل أن تتوطد صداقتهما فيما بعد ؛ خاصة في (جلسات تحت السور) بباب السويقة.

• ثانيا : (مع جماعة تحت السور) : وفي (جماعة تحت السور) عاش كرباكة واقعا أسود ومظلما.. ومن المعلوم أنه في هذا

(1) مجمل تاريخ الأدب التونسي : ح ح عبد الوهاب ط تونس 1968 ص 306 وما بعدها.

(2) جماعة تحت السور : رشيد الذواوي ط 2 القاهرة 2004 م ص 124.

الواقع إنسدت أمام (إخوان البوهيم) جميع المسالك.. ودفعهم ضيق النفس فيما بين الثلاثينات والأربعينات إلى الإحساس المفرط بالهموم، فحاولوا أن يؤثروا على الواقع السياسي ببعض المواقف والكتابات، ولكنهم لم يثبتوا طويلاً أمام المواجهات الصريحة.. لذلك رأيناهم ينقطعون عن الدراسة.. وعاشوا في (سهو الحياة).. وهنا توزعوا على الصحف التونسية، وجابهوا (الواقع المقهور) بأقلامهم؛ فالتحق مصطفى خريّف بجريدة (لسان الشعب)، ومحمود بورقية (بجريدة الوزير)، والهادي العبيدي بـ: (الصواب).

وفي نسيان اللحظات من الواقع المقهور وفي السهرات الليلة.. ومع ساعات اللهو حتم الواقع المقهور أن يكتب عبد الرزاق كرباكة قصيد : (يفيق الحب)، ومحمد العريبي، قصيد: (صلوات عند قدميها)، والهادي العبيدي ملزومة (جيل اليوم)، ومحمود بورقية قطعة (إملاً العيش بهجة).. وفي أجواء لحظات النسيان؛ كان ميلاد أغاني كرباكة الشهيرة، وإنشاد (تحت الياسمين في الليل)، وغناء (زينة يا بنت الهنشير)، وألحان الهادي الجويني، وأغاني المطربة فتحية خيرى :

أنا وأنتِ وأنتِ أنا

والدنيا يا عين عليها

عيشة فنان وفنانة

أحلى من الدنيا وما فيها⁽¹⁾

(1) (جماعة تحت السور)، ط 2 القاهرة ص 61 وما بعدها.

وعن دور (مقهى تحت السور) كتب الأديب محمد العروسي
المطوي قائلاً :

(..لعب دورا كبيرا في حياتنا الثقافية والأدبية الحديثة... لقد
كان هذا المقهى لجيل الثلاثينات والأربعينات متندى لصفوة من
الأدباء (أصحاب الغلبة) ؛ الذين لم يكن لهم من المال ما يسمح
لهم بتكوين ناد يجمعهم ؛ إلا تلك الدريهمات ؛ التي يدفعونها ثمنها
(لفنجان قهوة) أو (كأس للشاي).. ومن يدري فلعل البعض منهم
يدفع بالآجال إلى أن يرحم ربك؟...) (1).

ويقول عن رواده الكاتب عز الدين المدني في مقدمة كتاب
(تحت السور) :

(لم يكن في وسع هؤلاء الرواد - أيام شبابهم - أن يواصلوا
تعليمهم في الصادقية لقلّة ذات اليد، فانكبوا يتقفون أنفسهم بصورة
عصامية : بالمطالعة.. بالتأمل، بالإحتكاك الاجتماعي المستمر،
بالتلمذ لأدباء سبقوهم في الميدان.. بالدخول في صلب الحركة
الوطنية التحريرية والذود عنها على أعمدة الصحف أو على أركاح
المسارح.

إلا أن آفاقهم كانت مسدودة أو يرونها - هم مسدودة.. أو
مغلقة - وكان وضعهم بائسا، خاسرا منحدرًا، ومطامحهم معطلة،
معرقلة، مشلولة.. كما كانوا يتمعشون ولا يعيشون، يتسكعون ولا
يصبرون..) (2)

(1) (جماعة تحت السور)، ص 68 وما بعدها.

(2) (تحت السور) لعلي الدوعاجي، ط تونس، ص 9 و 10 (مقدمة عز الدين
المدني)

كرباكة الأديب :

وكرباكة الأديب المتميز ؛ والذي قال في شأنه المؤرخ ح ح عبد الوهاب في كتابه (مجمل تاريخ الأدب التونسي) : إنه نال (إجازة التطويع) من الزيتونة ؛ هي ما زالت محل نظر.. فالرجل قضى ربع قرن في خدمة المشاريع الاجتماعية والأدبية ؛ فكان فيها مرموقا بين الغبطة من زملائه والحسد من أعدائه.. وقد ترك لنا أعمالا أدبية قيمة تمثلت في :

• أولا : أحاديث ممتعة مكتوبة كان قدمها في الإذاعة التونسية.

• ثانيا : أغاني طربية وأزجال شعبية.

• ثالثا : خواطر أدبية ومسرحيات ك (أميرة المهدية)، و(عائشة القادرة)، و(ولادة وابن زيدون) وغيرها..

• رابعا : قصائد شعرية بالفصحى وباللهجة التونسية.

• خامسا : قصص تاريخية، ومقالات اجتماعية واقتصادية.

وبالنظر إلى هذه الآثار ؛ يكون (كرباكة) مارس مختلف الفنون الأدبية طيلة ربع قرن؛ حيث قرض الشعر منذ حداثة سنه، وألف المسرحيات، وكتب الأغاني، والمقالات والخواطر ؛ في جل المجلات والدوريات التونسية الصادرة في حياته، وبالخصوص في دوريات (جماعة تحت السور).

و(أدب كرباكة) عامة ؛ تميز في تقديري بالصور المعبرة عن جيله في الرقي والسؤدد والرخاء، وزاخر بأحاسيسه وبإخلاصه وصدقه، وبتعلقه بشعبه وحب الجارف لأمته ؛ التي عاشت كثيرا في الكبت والفقر والجهل، وتحت قيود المستعمر.

ومن ميزات أدبه : اختياره للألفاظ الجزلة، وسعة خياله، وميله لكل ما يثير في النفس المرح والسرور.. بالإضافة إلى الواقعية في حسن الصياغة، والحدّ من الخيال الجامح، والسعي في تصوير (الواقع الكائن) وفي طياته مشاغل جيله.

كرباكة.. الشاعر:

وعبد الرزاق كرباكة ؛ الذي أحبّ الشعر وتعددت قراءاته لدواوين شعراء العرب الكبار أمثال : البحتري، والمتنبي، والمعري، وأحمد شوقي، ومعروف الرصافي.. قلت : أقدم على فتح مجالات التجديد في مجال كتابة الأغنية والألحان.. وقدما هذا التيار على يديه بعد بعد(تأسيس الإذاعة التونسية) في عام 1938م، كما أمّد معظم الدوريات بأشعاره ؛ التي تغنى فيها ب : الأرض.. وبجمال الطبيعة التونسية، وبالفاتة الرشيقة : (حواء).. وبالمراة عامّة.

هو شاعر بامتياز، وقصائده ذائعة في عصره وبعده، ونالت إعجاب الناس، وخاصة في رثاء النابهين في أمّته ك : الشابي، ومناشوء، والمولحي، والمعري.. وفي حفل ميلاد المعري الألفي؛ الذي أقيم بالمرسح البلدي في عام 1944م، أنشد فيه قصيدة (المحبسين)، وجاء فيه:

بلغتك أطوي ألف عام

لأنشد فيض الحق من حيث ينبع

سلام (رهين المحبسين) وماهوى

سلام على ذاك الجنب مربع

على ألم المبرور بالصبر يشتهي

على الوهن الموتور بالنفس ينقع

وبعد ! فإن الزائرين بيبابكم

فهل في رحاب الشيخ للقرب مطمع ؟..

ونادى منادي الشيخ، يا قوم شرفوا

على الرحب إقبال، على الرحب مطلع..

ولعل خير ما أختتم به هذه الصفحات : هي شهادة المفكر محمد
الفاضل بن عاشور القائل عنه في (الحركة الأدبية والفكرية) : (.. أمّا
عبد الرزاق كرباكة ؛ فقد تكونت روحه الشعرية بقوة مراسه للأدب،
وشغفه بالفن البلاغي بذاته إذ تخرج على الشيخ مناشو⁽¹⁾ فامتزج
الميل البلاغي في نفسه بميول عواطفه الغريزية إلى الجمال والحبّ
والأنس والمتعة، فجرى في مسالك الحياة بنور الشباب حتى كان
كما يقول هو عن نفسه : (بسمة وجيع) ودمعة صريع يحرقني في
البعاد وينهكني السهاد...)

ويمضي في شهادته فيقول :

(ومع كونه غزلي الروح الشعرية ؛ فإن تعلقه بـ (الفن للفن)
كأستاذه مناشو ؛ قد حبّب إليه التنقل بين أفنان الأغراض ؛ فحاض
الاجتماعيات ؛ ولكنه لم يؤت فيها ما أوتي في الغزل من رقة
المعاني وانسجامها.. فجاءت اجتماعية مغسولة المعاني مضطربة
الأغراض، ولكنها برزت في قوالب جزلة وتراكيب متخيرة ذات
وقع جميل يزيده حسن اختياره للأوزان المنشطة، وقوة فصاحته
في إلقائها).

(1) كاتب وعالم كان من رجال الإصلاح والتربية.

فهذه الشهادة ؛ تثبت أن (لكرباكة) مكانة في جيله، وموهبة
شعرية صقلتها التجارب، وخلدها كل ما هو ناعم يحكي عن الحنين
والرقة، والعاطفة والأشواق.

عبد الرزاق كرباكة وسياق التونسة والتجديد الثقافي

زهير الزوادي

عاش عبد الرزاق كرباكة (1901 - 1945) خلال النصف الأول من القرن العشرين، وهي المرحلة التي شهدت تراكم للتحوّلات الإقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي جدّدت أشكال ومضامين التطوّر التاريخي الذي قاد إلى تحقيق الاستقلال وقيام الدولة الوطنية في تونس (1956). وإن لم يكن عبد الرزاق كرباكة⁽¹⁾ شخصية فاعلة في المجال العام (السياسي). فإن إسهاماته في المجالات التي نشط فيها لا يمكن مقاربتها في بعدها التاريخي إلا من خلال ربطها بالسياق التاريخي السياسي الثقافي الذي رافقته وتفاعلت معه، وفق مقتضيات موقعه الاجتماعي ومواقفه وممارساته التي قادتها رؤية ثقافية خاصّة منفتحة هاجس كل من التجديد والتونسة.

-السياق التاريخي- الثقافي:

إنّ اسم السياق التاريخي الذي برز خلاله دور عبد الرزاق كرباكة بالتمازج العضوي بين عاملي الثقافة والسياسة، حيث هيمن الواقع السياسي بتناقضاته ومحدداته، على مناخات ممارسة الثقافة وتطوورها في تونس. كما أنّ أهمّ التوجهات التي تعبأت حولها أعلام

النخبة التونسية منذ منتصف القرن التاسع عشر كانت مدموغة بطابع سياسي - ثقافي، فقد كانت أفكار الإصلاح والنهضة والتحديث في صميم إهتمامهم وأعمالهم وتفكيرهم. كذلك كان الشأن منذ الإعلان على عهد الأمان (1857) بعد إلغاء العبودية (1846) وقبل صدور دستور 1861، كإجراءات تنظيمية لتحديث الدولة التونسية ودفعها على طريق النهضة من خلال إصلاح هياكلها ومؤسساتها وسياساتها، التي وإن هددت مكاسبها "ثورة العربان" 1864، فإن سياسة خير الدين باشا (1810 - 1890) على رأس الحكومة التونسية (1873 - 1877) عززت الأمل في قدرة الإصلاح على تحقيق أهداف النهضة والتحديث أولاً، وإبعاد شبح السقوط في مخالب الاستعمار الفرنسي المسيطر على الجزائر منذ سنة 1830⁽²⁾.

لكن فشل المشروع الإصلاحي في إستباق خطر السقوط في مخالب الاستعمار أربك وعي النخبة التونسية بمختلف أصنافها وأصولها ونزعاتها، بعد أن دحرج مكانتها في الدولة وموقعها في المجتمع. ومنذ فشل حركة إحتجاج أهالي مدينة تونس (03/03/1885) التي تزعمها محمد السنوسي (1850 - 1900)⁽³⁾ وأحمد كريم (1827 - 1897)، وهزيمة كل أصناف مقاومة الغزو الفرنسي بعد (12/05/1881)⁽⁴⁾ إنتقل الوضع في البلاد التونسية إلى حقبة جديدة من سياقها التاريخي بعلاقة مع الواقع الاستعماري الطارئ. وقد شكّل البروز التدريجي للتيار الوطني الحدث التدشيني للحقبة الجديدة. فيما بين مطلع القرن العشرين (ميلاد حركة الشباب التونسي 1907) ونهاية الحرب العالمية الثانية في 1945 (سنة وفاة كركباكة) تنامت الحركة

الوطنية التونسية التقليدية في أفكارها وصيغ نضالها (من 1907 إلى 1934) قبل أن تعرف تحولات وتغييرات شاملة جعلت منها حركة نضال وطني ناجع قاد البلاد إلى تحقيق استقلالها سنة 1956 واضعاً حد للسياق التاريخي الاستعماري في تونس.

وقد اعتمدت الوطنية التقليدية التونسية على الجانب الثقافي (في معناه الشامل) لمقاومة سياسة الإدماج والتجنيس والقهر الاجتماعي والديني والتربوي التي إتّبعها سلطات الحماية وذلك بهدف ولتأكيد وتنمية دعائم الكيان الوطني التونسي السياسي والحضارية. وقد لعب المثقفون في ذلك دوراً حاسماً. وقد زامن ذلك الحراك الثقافي السياسي مرحلة بروز نشاط عبد الرزاق كرباكة كشاب تعود أصول إنتماؤه الاجتماعي إلى الأصناف الحضريّة الوسطى بحكم مهنة والده (و باقي أفراد عائلته) في صنع الشاشية التونسية التي كانت تكرّس رمزا ثقافيا وطنيا متميزا. فقد إنضهرت عائلة كرباكة الأندلسية الأصول والقادمة من مدينة قارباكة (سنة 1608)، فرارا من التنصير⁽⁵⁾ في المجتمع التونسي (في مدينة تونس العاصمة) وإنتمت إلى شرائحه الاجتماعية التي زعزع الإستيلاء الاستعماري على البلاد مقومات حياتها المادية ووسائل عيشها.

وإن إلتحق عبد الرزاق كرباكة بالمدرسة القرآنية الأهلية بداية من سنة 1907 ثم بالمدرسة العرفانية سنة 1911 والتعليم الثانوي بجامع الزيتونة 1917 فهو إنقطع عن الدراسة سنة 1921 قبل الحصول على شهادة التطويع. وتعود أسباب الإنقطاع إلى ثلاثة أسباب: وفاة والده (1908)، الشغف بالأدب وتحجّر إدارة جامع الزيتونة.

بعد الدراسة وإحترام الحياة المهنيّة لم يغادر عبد الرزاق كاربাকা
الفصيل الاجتماعي الوسيط من البرجوازية الصغيرة الحضرية، بل
إقتحم الوسط الثقافي والفنيّ والصحفي في مرحلة تاريخية حبلى
بالتحوّلات وبدأت خلالها علامات التغيير والتجديد العميقين.
ومهما يكن من أمر تاريخ ولادة عبد الرزاق كرباكة فهو ينتمي إلى
جيل أهم رموز تيار الدعوة والعمل إلى التجديد الحضاري والثقافي
في تونس الذي برز في نهاية الربع الأوّل من القرن العشرين حيث
أنّه عاصر كل من أبي القاسم الشابي (1943 - 1990) حامل
مشروع تجديد الثقافة والفنون والأدب في تونس، وطاهر الحدّاد
(1899 - 1953) صاحب مشروع التحرّر الاجتماعي الحديث
والحبيب بورقيبة (1903 - 2006) رائد المشروع السياسي
الوطني التحديثي. وقد شكّلت هذه الروافد أركان السياق التاريخي
الثقافي الذي واجه كرباكة تحدياته ومقتضياته فتفاعل معها حسب
موقعه ومؤهلاته وخياراته. لقد عاش عبد الرزاق كرباكا زمن
تحولات مجتمعيّة عميقة بما تحمله من تناقضات حادة في الواقع
وما تنتجه من وعي، وهي عوامل مولدة لأزمة تاريخية لا يستوعب
مجالها ومآلها إلاّ الذهن المنفتح على الفكر التاريخي والنقدي.
وعلى أساس التفاعل مع عوامل تأزم المجتمع الكولونيالي
التونسي، إختار عبد الرزاق كرباكة الإنحياز إلى هامش منظومة
المثقفين التونسيين كصيغة لممارسة حرّيته الشخصية ورؤيته
النقدية للواقع، فأنتمي إلى جماعة تحت السور كإصطفاف مع
المنشقين عن المجتمع والناقدين له والرافضين لأسباب تأزمه
وضعفه وتخلفه. من جهة أخرى كان السياق التاريخي الثقافي
الذي عاصره عبد الرزاق كرباكة مثقلا بما يحمله في طياته من
بذور لقوى مجتمعيّة جديدة، ونزعات تجديدية في الوعي والفنون

والثقافة والفكر وتشكّل وعي جمعي متمحور حول الذات الوطنية وهو وعي "التونسية" الذي شكّل قاعدة ذهنية ونفسية وسياسية لمطلب الاستقلال وشكّلت لاحقاً أرضية ثقافية لدولة الاستقلال. وقد ساهم عبد الرزاق كرباكة في صيغ متعددة في ثلوث الأبعاد المشار إليها والتي كانت، بدورها، الفاعلة في السياق التاريخي الثقافي الذي عاصره.

في المجتمع المدني الناشئ... وخيار «الهامشي»:

لم يكن عبد الرزاق كرباكة سياسياً لكنّه كان مهتماً بالشأن العام ومناصرًا لمبدأ التنظيم المستقل (عن السلط) من أجل تمثيل المصالح والطموحات والدفاع عنها وصياغة آفاق لتحقيقها أيّ أنّه كان متفاعلاً إيجابياً مع تنامي قوى مجتمعيّة جديدة مشكّلة للمجتمع المدني. وكانت إهتماماته المدنيّة متنوّعة: نقد كان من الجماعة المؤسّسة لجمعيّة النادي الإفريقي الرياضيّة (قبل أن يلتحق به الحبيب بورقيبة سنة 1929)، كما أنّه إنتمى إلى كل من جمعيّة الرشيدية والخلدونية - ومن جهة أخرى كان كرباكة شديد الإلتزام بعالم صناعة الشاشيّة (و هي المهنة المتوارثة في عائلته) حيث عمل على تأسيس جامعة النقابات التونسية للتجار والصناعات بعد أن جهد طويلاً لدفع أصحاب الورشات ومحلات الصناعة والبيع لتشكيل نقابات لكل حرفة. وكانت الحياة المهنيّة لعبد الرزاق كرباكة متقلّبة، فهو عمل بالتدريس في المدرسة العرفانية تحت إدارة أستاذه محمد ناشو، ثمّ إلتحق بإدارة «مشيخة المدنية» ثمّ بـ«الحجرة التجاريّة» بتونس قبل أن يتفرّغ للمصحافة والأدب والمسرح والفن⁽⁶⁾. إلى جانب ذلك عمل كرباكة في

جريدة «المضحك» محررا فرئيسا لتحريرها (1920)، ثم حرر «لسان الشعب» وترأس تحرير جريدة «الزمان» (1932).

وإن نجح كرباكة في المساعدة على تأسيس عدد من النقابات رغم معارضة السلط الاستعماريّة، فهو لم يفلح في بعث صحافة نوعيّة ومؤثرة على المدى البعيد وذلك بسبب إبتعاده عن الشأن السياسي المباشر من ناحية وإنصرافه، من ناحية أخرى، إلى الإهتمام بالنشاط الفنّي والأدبي والمسرحي محاولا في ذلك تنمية شبكة قوى المجتمع المدني العامل في مجال المسرح والتمثيل. لكن ظروف تشكّل المجتمع المدني التونسي في واقعه الكولونيالي أضفي على القوى المجتمعيّة النامية طابعا وطنيا جليّا مثلما بيّن ذلك المؤرّخ مصطفى كريم الذي كتب: أنّ «القاسم المشترك بين مختلف الجمعيات هو طابعها الوطني، حيث أنّ كل التجمّعات التونسية قد تبنّت حسب التقارير الأمنية، صيغ الدعاية المستعملة من طرف الأحزاب السياسيّة الوطنيّة من اجتماعات ومسامرات في المحلات الخاصّة والعامة التي تتناول مسائل أدبيّة وفلسفيّة ودينيّة واجتماعيّة من وجهة نظر محدّدة أي أساس المفهوم الإسلامي أو الفكرة الوطنيّة»⁽⁷⁾.

لم ينخرط عبد الرزاق في العمل الوطني الحزبي، ولم يكتب في الشأن السياسي، ولكن مساهمته في الجمعيات والمنظمات وفي الصحافة شكّلت في حد ذاتها عملا ذا بعد سياسي، حيث أنّه كان منصهرا في حراك القوى المجتمعيّة ضد سلبيات الواقع الكولونيالي وإفرازاته. وكانت الحركة الإعلامية التونسية خلال السنوات ما بين الحربين العالميتين شديدة الإرتباط بالنمو السياسي والحركة الاجتماعية في البلاد. فالحركة الصحفية عرفت ذات الإلتعاشة

التنشيطية التي عرفها النضال الوطني، مساهمة معه وبين طياته في إنهاض همم الأهالي، ونشر بذور مقاومة الاستعمار (الجرائد السياسية والاجتماعية) حتى بصيغ غير مباشرة والدفاع عن الهوية الوطنية (النشريات التربوية والثقافية والدينية) مكرسة خيار تعزيز الوعي بالتونسية، والإنتاج والخلق الفنيين (الصحافة الأدبية) ونشر المعرفة ومقاومة الأمية. وقد عرفت السنوات الثلاثين صدور أكبر عدد من الجرائد والمجلات حيث ظهرت في البلاد فيما بين سنتي 1900 و 1950 ما يضاهي 182 جريدة ومجلة⁽⁸⁾، إنفردت السنوات الثلاثون بالقسط الأوفر منها أي 59 جريدة ومجلة⁽⁹⁾.

و قد عبر هذا "الغليان الصحفي" عن تنامي الوعي الوطني المتمحور حول الذات التونسية المستقلة والمطالبة باستقلالها السياسي عن فرنسا، ويشمل ذلك التيار كل المنشورات التونسية بما في ذلك تلك التي إلتزمت (في البداية أو بشكل من الأشكال) بعدم الخوض في المسائل السياسية مثل جريدة "الزمان" التي صدرت سنة 1929 وعمل بها عبد الرزاق كرباكة أو مجلة "العالم" (1930) لمحمد الفخري أو "العالم الأدبي" (1930) لزين العابدين السنوسي و"الفجر" (1931) لعبد السلام فريول. فكل الجرائد ساهمت في تشكيل رأي عام وطني متفاعل بأشكال متنوعة مع تأجج الحركة الاجتماعية والإحتجاجية في البلد ضد الإضطهاد الاجتماعي والسياسي والثقافي حسب شاتلان⁽¹⁰⁾.

كانت كتابة كرباكة الصحفية بعيدة عن السياسة ومنهمكة في شؤون المجتمع والثقافة والفنون، وهي شديدة الإهتمام بحقيقة الواقع السائد في البلاد مع نبرة نقدية جلية دون الغوص في تفاصيل الحلول الممكنة له من خلال مشاريع تغييره الذي كانت تحلم به

برصانة ودون أن ترفع شعارات قطعية بشأنه. لم يتحرّب كرباكة ولكنه لم يجاهر برفض النزعة النضالية للوطنيين وهو لم يسعى إلى تأجيج الرأي العام بل سعى إلى تشكيله وصياغة مقاييس فهمه للواقع، وهو في ذلك ساهم في تنمية الوعي الوطني والمدني دون الإنخراط في منطق نضالي. ويعني هذا التقييم إلى أنّ عبد الرزاق كرباكة بقي على هامش التيار الذي شقّ عالم الصحافة التونسية فيما بين الحربين وجعل منها أحد أهم روافد تشكيل الفكرة الوطنية التونسية وأحد أهم محركات النضال الوطني والشعبي. فلا "المضحك" ولا "الزمان" صنعا مدرسة إعلامية نوعية ومؤثرة في التاريخ التونسي رغم أنّهما ساهما في تونسة المادة الصحفية وهمومها وعزّزا الرأي العام النقدي إزاء الوضع السائد في البلاد.

شكّل الهامش في المجتمع وفي الحياة العامة بمختلف جوانبها المجال الذي إختاره عبد الرزاق كرباكة لمسيرة حياته العامة والخاصّة، وهو رافق تجربة جماعة تحت السور وشاركها توجهاتها وأنشطتها وممارساتها التي كرّست الهامشية كنمط عيش وتفكير وإبداع، بالرغم من أنّ بعض النقاد (مثل محمد صالح الجابري) لم يعتبروه من بين أعضائها⁽¹¹⁾. وإذا كان أغلب الدارسين لحياة وآثار عبد الرزاق كرباكة يعتبر أنّه من ضمن أبرز أعضاء جماعة تحت السور، فإنّ الهامشية التي كرّسها كرباكة (و جماعة تحت السور بصفة عامّة) شكّلت تعبيرا عن موقف نقدي وإحتجاجي وإنشقاقي ضدّ الأوضاع الإقتصادية والاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة السلبية والقاهرة. فهي تبدو في شكل صرخة ضد قساوة الواقع وإنسداد الأفاق في آن، مما دفع ببعض الأفراد إلى رفض الإنصهار في النسيج الاجتماعي وقواعد وطقوس الاندماج الجماعي، وهو خيار كرباكة

الّدي لاحقته إلى حد موته، سمعة التفسخ الأخلاقي وممارسات الممنوعات والمحرمات بما في ذلك تعاطي المخدرات والمبالغة في مخالطة النساء والإستهتار بقواعد الأخلاق العامة.

وإن كان عبد الرزاق كرباكة يكرّس مفهوم الفرد الهامشي على الصعيد السياسي والاجتماعي كما بيّنه إسماعيل قيرة⁽¹²⁾ فإن من المفيد أن نشير إلى أنّه لم يكن من خلال آرائه وممارساته فردا مهما بل كان فردا هامشيا على أساس خيار فكري واع مثلما بيّنت ذلك إبتسام الوسلاتي⁽¹³⁾.

لم يكن كرباكة مهما، بل هامشيا، وكان كلّ من مضمون هامشيته ومحدداتها ودوافعها متجذرا في موقفه الراض للواقع السياسي الكولونيالي وللوضع الاجتماعي الإضطهادي الّذي لا يفتح آفاقا لأوسع مكونات المجتمع وأبناء الشعب (وهو من ضمنها طبقيا!!). وكان كرباكة منقبضا من تكلّس المناخ الثقافي والفني والإبداعي في البلاد بسبب هيمنة الإشكال والصيغ والمضامين التقليديّة والجامدة عليه، فضلا على حالة الإستيلاء الذهني الّذي يفرزه ذلك الواقع الثقافي الّذي لا يتجذّر في حياة الناس ولا يتفاعله معها ويعكسها ولا يمثلها.

لقد كانت هامشية كرباكة حالة تمرّد ضد الغبن (طاهر الحدّاد) والغلبة (علي الدوعاجي) الّذي كان المجتمع التونسي غارقا فيهما. لذلك، نحسب أنّ هامشية كرباكة لا تعدو أن تكون سوى دعوة إلى تونسنة الثقافة والفنون والفكر في بلاده وجعلهم نابعين من واقع المجتمع، كما أنّها تشكّل دعوة إلى ضرورة تجديد وتعصير مضامينهم وأشكال صياغتهم كمقدّمة كبلورة مشروع تجديدي وتحدي ثي وإصلاحي لكل أوجه الحياة في المجتمع التونسي.

جمعت شخصية عبد الرزاق كرباكة عدّة وجوه متناقضة ومتكاملة (بالضرورة) ومتفرّدة في قدرتها على التناغم كما جمع منجزه الصحفي والفني والأدبي جوانب متعددة لا يمكن تعقل ترابط حلقاتها ومحدداتها ومضامينها إلّا من خلال ربط شخصيّة كرباكة وحياته القصيرة بالسياق التاريخي الثقافي الذي عاصره وإن أوضحنا أنّ العنصر الأساسي صلب ذلك السياق هو تأكيد الوطنية التونسية ودعائم هويتها في كل مجالات الحياة، وهو ما وسمناه بمفهوم «التونسة» وما إستوجبه ذلك الفعل من جهد تأصيلي وتجديدي وتحديثي على الصعيد الفني والفكري والثقافي عامّة، فإنّ مساهمة عبد الرزاق كرباكة كرسّت المسار التاريخي الثقافي الّذي عاصره وجاءت وفق مؤهلاته وظروفه وقناعاته الّتي لا يمكن إختزالها في الهامشية الّتي صبغت حياته، حيث أنّ تلك الهامشية لم تكن سوى تعبيراً عن إحتجائه ضد الواقع المعيش ورفضاً له من ناحية، وإعلاناً عن تمسكه المطلق بمبدأ الحريّة في الحياة من ناحية أخرى.

أ- التونسة والتجديد الثقافي :

شكّل كل من التونسة والتجديد الثقافي في حياة كرباكة ومنجزه الثقافي عنصرين متكاملين لا يمكن فصلهما عن بعض ولا يمكن تحقيق الواحد منهما دون الآخر. فقد كان عمل كرباكة محاولة لتجديد الثقافي بهدف تأكيد الذات التونسية وحيوية كيانها، وهو مارس ذلك في الصحافة الهزلية (جريدة المضحك) ثم في جريدتي «لسان الشعب» و«الزمان»، حيث جعل كل منهما منبرا لتبليغ رأي العامة وإثارة مشاكل وصعوبات البلاد ومعاناة شعبها دون الخوض في ذلك وفق منطق سياسي. كما أنّه نجح في دفع

أهل الصنائع والحرف من خلال الصحافة والتواصل - إلى تأسيس نقابات (في حرف الشاشية والحريير والنسيج والخبز...) بمعدل نقابة كل أسبوع، واضعا تجربته المهنية السابقة في الإدارة في خدمة أصحاب الصناعات المحلية المهتدة بالتوريد والمعامل الكبرى (الفرنسية).

جعل كرباكة من الصحافة مجالا لتجذير حقيقة الواقع التونسي ونقده والدعوة إلى إصلاحه وفق شعار جريدة الزمان الذي لخصه في بيتين شعريين من نظمه حين كان رئيسا لتحريرها (1932) وقبل المشاركة في جريدة «تونس» (1936)

اقرأ الجريدة راضيا أو سبا * لا شيء غير الحق برضى ربها
شأن الصحافة أن تسيّر شعبها * نحو الهدى لا أن تسير شعبها
وإلى جانب الصحافة التي تتجذر -رئيسيًا- في الواقع الوطني التونسي، فإن الصحافة بالنسبة لكرباكة هي وسيلة للتنشيط الثقافي، حيث أنه شجّع الكثير من المبادرات لتأسيس جرائد فكاهية تعكس الروح التونسية المرححة والنقدية بعيدا عن التكلف والوعظ الممل والمعبرة عن موقف رافض للاستعمار بشكل ساحر يقاوم مظاهر الفساد والانحلال التي تعرقل مسار تطوّر المجتمع⁽¹⁵⁾، مما جعل هذه الصحافة مستهدفة - أحيانا - من طرف سلطات الحماية (إثر أحداث الزلاّج 1911) وإثر صدور مقالات نقدية في جريدة الشباب في مارس 1937، أو جريدة السردوك (أفريل 1937)⁽¹⁶⁾. وقد لعب كل من محمود بيرم التونسي ومحمد العربي دورا مهما في إضفاء طابع نقدي جذري ضد الاستعمار من خلال «عدم الالتزام بالقواعد الصحفية المتعارف عليها وحرصه (أي

العربي) على التداخل بين الصحافة والأدب الذي توسّعت دائرته ليستضيف هذه الأجناس التي عانت طويلا من الإقصاء والتهميش فأعاد هؤلاء المبدعون توزيع الأدوار بإدخال ما كان يعد هامشا في دائرة المركز وخلخله النظام الذي كان سائدا في سبيل طرح رؤية مختلفة...»⁽¹⁷⁾.

و كانت كتابة كرباكة الصحفية متميزة بموضوعاتها الاجتماعية والثقافية والفنية ومتّسمة بسهولة التركيب واللغة وأناقة الصياغة، مما أفضى عليها طابعا ملموسا وواقعيا ونقديا حتّى وإن كانت محرّرة في صيغ أزجال (التي كان يوزعها على عديد الجرائد والمجلات)⁽¹⁸⁾ ساعيا في ذلك إلى جعل الصحافة التونسية وطنية ومتحرّرة من نماذج الكتابة القديمة أي أنّ التونسية ترافق التجديد في المجال.

وقد إتّبع كرباكة ذات التمشي في الكتابة في مجال الأزجال وباقي التعبيرات الأدبية الشعبية، حيث أنّه رغم دفاعه عن الطابع العربي للثقافة والآداب في تونس، وعن اللغة العربية عموما. وبرع كرباكة في نظم الأزجال وتألّف الأغاني والأناشيد التي عرفت رواجا كبيرا جعلته معتدا بها حسب مصطفى خريّف⁽¹⁹⁾ أكثر من شعره الفصيح، وقد ساعده طبعه اللين والمرح ولطف ذوقه على النجاح في إنتاج أزجال بديعة في أغراض الغزل البلدي الذي تحوّل بعضها إلى أغاني واسعة الانتشار⁽²⁰⁾. وقد أشار الدارسون لهذا الصنف من إنتاج كرباكة إلى أن نزعة التجديد لديه عمّقت التعبير الراقي وأنّه تمكّن من تحقيق ذلك من خلال حشر ألفاظ وتعبيرات أدبية فصيحة ممزوجة بصور وقوالب مأخوذة من الأدب الشعبي تؤكّد على نوعية مجهود الشاعر من ناحية وإلى تعلقه من ناحية ثانية بمبدأ

توحيد مختلف اللهجات التونسية في منظومة واحدة ومشتركة⁽²¹⁾ قد تكون قريبة من لغة الموشحات الأندلسية التي إحتفظ بها غناء المؤلف التونسي⁽²²⁾ والتي نسج على منوالها كرباكة بعض قصائده الغنائية مثل قصيدة: «يا مكتوب» و«يفيق الحب» و«و من توا خير يا حوا» و«كي بغيت تطير يا حمامة».

إن روح هذه الأزجال والقصائد خفيفة وجريئة وهي تجديدية في منوال إثارته للعواطف ووصفها وفق صيغ لغوية متداولة وعفوية، تفهمها أغلب قطاعات المجتمع مما يؤكد هاجس التونسية الكامن في وجدان الشاعر. وقد أضاف أحد الدارسين لأدب كرباكة (محمد أنور بوسنيّة) أنّ هذا الأخير يعتبر زعيم مدرسة قائمة الذات في مجال الشعر الشعبي وأوّل من عمل لإنقاذ المجتمع التونسي من خطر إكتساح الأغاني الهابطة⁽²³⁾ وهو رأي يشاطره أبو القاسم محمد كرو الذي اعتبر أنّ أزجال وأغاني كرباكة طهّرت الغناء التونسي من «المبازل السخيفة» ومن «الأغاني المتعفّنة»⁽²⁴⁾ لأنّها نجحت في صياغة أغاني وجدانية وعاطفية لطيفة في لغة جميلة في مستوى صورها وعباراتها والحس الحضاري الذي توحى به والذي إعتبره بعض النقاد نتاجا لثقافة أهل العاصمة و«الذهنيّة البلدية»، مثلما جاء ذلك - على سبيل المثال - في قصيد «كسرت الكاس»⁽²⁵⁾. وإن كوّست أغاني كرباكة هيمنة مواضيع الحب والغزل والهجر والعتاب متخلّصا من الإباحيّة والبذاءة دون تكلف الإعراب والفصاحة، ومقتبسا المعاني السهلة من الفصح «فيمازج بينه وبين مدارك لغة الشعب الوسطي فيصيب الغرض أحسن إصابة» حسب مصطفى خريّف⁽²⁶⁾ فإنّه ربط بعض أغانيه بأغراض تعليمية ونقدية وتحمل مضامين اجتماعية مستمدة

من الواقع اليومي للشعب التونسي»...⁽²⁷⁾، مثلما جاء في كل من أغنية «البلغة» و«دقلة توزر». وإعتبر الهادي العبيدي أن كرباكة ساهم في ظهور نوع جديد من الأغاني وهي الأغنية الاجتماعية التي لم تعرف من قبل «فنظمت مجموعة من الأغاني التي تتعرض إلى الكثير من المواضيع الاجتماعية الهامة كالزواج وغلاء المهور والحض على إحياء الصناعات التونسية القومية والإشادة بخيرات البلاد التونسية وما تنتجه تربتها...»⁽²⁸⁾ وهي مواضيع نابعة من صميم واقع البلاد وخصائص العيش فيها ككيان لا يستحق البقاء تحت هيمنة الاستعمار. إن ما أراده كرباكة من خلال شعره الغنائي هو «تدعيم النهضة الفنية ضمن نهضة شعبه القومية فأدخل الجديد الرائع وأبعد القديم المائع»⁽²⁹⁾.

إذا كان دور كرباكة في المجال الصحفي والفني والأدبي منطلقا من الحرص على التجديد فإن دوره في مجال المسرح ينصهر ضمن التأسيس له بإعتبار أن المجال المسرحي يشكل في حد ذاته مجالا جديدا في الثقافة التونسية، مما جعل عز الدين المدني يعتبر كرباكة ضمن المجموعة الأولى من الكتاب المسرحيين⁽³⁰⁾. وقد انضم كرباكة إلى جمعية «الشهامة العربية» كممثل في 1919 قبل أن يؤسس فرقة «الهلال» (1920) قبل أن يلتحق بجورج أبيض ويساهم في تأسيس «جمعية الآداب التشيلية» (1922) ليعمل بها كملقن، إلى أن أصبح مديرا لفرقة «الجوق الكامي» (1924) حيث شرع في الكتابة المسرحية (1923)⁽³¹⁾.

إختلف دارسو أدب كرباكة حول أهمية أعماله المسرحية ضمن منجزه الأدبي من ناحية، كما اختلفوا حول القيمة الفنية لتلك الأعمال من ناحية أخرى، فإذا كان محمد الفاضل بن عاشور يرى

أنّ أهم مساهمة لكرباكة تكمن في شعره وليس في مسرحه ⁽³²⁾، فإنّ المدني والسقّانجي يعتبران أنّ كرباكة من المؤسسين لمسرح تونسي، في حين أنّ إبتسام الوسلاتي أكّدت على الطابع الوطني التونسي والروح التجديدية والتربويّة في مضامين مسرحيات كرباكة ⁽³³⁾.

قبل التطرّق إلى شعر كرباكة، نلاحظ أنّ مسرحه خضع لذات المقتضيات السياقيّة التي إنخرطت فيها حياته وأعماله، حيث أنّه ساهم في بعث المسرح التونسي من حيث أنّه جنس فني وثقافي جديد من ناحية، وحرص منذ البدء أن يكون ذلك المسرح تونسيا وطنيا وشعبيا وليس مجرد نتيجة تقليد لنموذجه الغربي من ناحية أخرى.

لقد إنخرط كرباكة في العمل المسرحي بمختلف جوانبه وجاءت كتاباته في ذلك المجال مدموغة بسياق تأكيد الذات الوطنيّة التونسية وعلى أساس بلورة أساس ثقافي وحضاري لها ينهل من قيم التسامح وعلويّة الصدق والنبيل وحرية البشر وحقّهم في الحياة الكريمة والتلذّذ بها وفي الحب وتقرير المصير فضلا على الدعوة إلى إصلاح العقليات البالية والعادات والتقاليد المضرة بالمجتمع والأسرة والمرأة والشباب...

وإذ أشار زين العابدين السنوسي إلى دور التأسيس الذي أنجزه كرباكة إلى جانب أعلام آخرين من جماعة تحت السور (الهادي العبيدي، محمد العريبي، علي دوعاجي) في تاريخ المسرح التونسي من تكوين الممثلين والمخرجين ورفع مستواهم الثقافي والفني ⁽³⁴⁾، فإنّ كرباكة إتّجه في كتاباته المسرحيّة التي كانت باللغة العربيّة الفصحى، إلى إعادة الاعتبار إلى منظومة القيم العربيّة الإسلاميّة

(مثل الشجاعة والمروءة والصدق والكرم) ودعمها في وجه الثقافة الاستعماريّة الزاحفة على البلاد التونسية، محاولاً في ذلك الدفاع عن الكيان التونسي (و ذلك يخدم أهداف الحركة الوطنيّة التونسية سياسياً وثقافياً !!) مؤكّداً عمق جذوره التاريخيّة والحضاريّة. وقد شكّلت المسرحيات التاريخيّة (كرباكة لم يكتب سوى مسرحيات تاريخيّة) وسيلة للتثقيف والترفيه وتوجيه الرأي العام نحو جوانب مشرقة من الماضي الحضاري العربي الذي يشكّل أساساً للشخصيّة التونسية والذي يمكن الإستلهام منه لمقاومة سلبات الحاضر (الاستعماري !!) جمع إشارة مهمة لمكافحة المرأة في تلك المسرحيات (أم بلال - ولادة - الجازية...) ودورها في المجتمع وهو ما يفتنّد بعض الانتقادات الموجهة إلى كرباكة بخصوص موقفه من تحرير المرأة وحقوقها.

ولم يكن المسرح التاريخي الذي توجّه إليه كرباكة تأليفاً وإخراجاً وتأطيراً صيغة للهروب من الواقع، بل كان وسيلة تثقيفيّة فنيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً، حيث أنّه مثلما لاحظ ذلك عز الدين المدني، لم يستدعي المتفرّج حتّى يرضى عن ذل نفسه ويقنع بمنزلته المتردّية بل كان ذلك يهدف إلى «تحريك أحاسيسه الوطنيّة وإثارة مشاعره القوميّة الدينيّة، ودفعه إلى المقارنة بين أمسه المشرق ويومه المظلم، ومن ثمّة النقمة على السياسة الاستعماريّة ومظاهر الخنوع التي تتاب الأمتة...»⁽³⁵⁾. ففي مسرح كرباكة دفاع عن الهويّة التونسية وعن تراثها العربي الإسلامي ونقد للاستعمار والتخلّف ولإنقسامات صفوف الشعب، كما أنّ ذلك المسرح كان حيّزاً للنشر قراءة جديدة للتاريخ ولبت قيم جديدة في المجتمع تقوم على نقد مغالطات المحافظين والمستعمرين في آن وأساسها التسامح

والحرية، الأمر الذي يجعلها - حسب إيتسام الوسلاتي - متناغمة مع الرؤية الهامشية لجماعة تحت السور⁽³⁶⁾، موظفا أساليب كتابة جديدة تمزج بين المسرح والغناء والشعر وتدخلها موشحات مالوف مثل الحال في مسرحية «ولادة ابن زيدون» ليكون العرض المسرحي غير تقليدي ومتجدد في روحه ومضمونه وأسلوب أدائه، متفاديا التراجيديا ومازجا الثقيف والعبر وأجواء المرح في آن⁽³⁷⁾ وفي نطاق فلسفة لا تعتبر أن الشر من طبيعة البشر ومؤكدة أن الشرير ضحية شره⁽³⁸⁾.

الشعر والفكر السياسي

جاءت كتابات وأنشطة عبد الرزاق كرباكة منصهرة تماما في السياق التاريخي الثقافي التونسي المتمحور حول تأكيد الذات الوطنية التونسية والمتحوّلة من كيان في حدّ ذاته إلى كيان من أجل نفسه (هيجل...). وقد تضمّنت تلك الكتابات والأنشطة جهدا تجديديا وتحديثيا جليّا صبغها بطابع وطني وحدائي. وفي سياق ذلك، بلور عبد الرزاق كرباكة رؤية سياسية متناغمة مع نزعته الوطنية والتجديدية التي تخللت منجزه الأدبي وخاصة منه أشعاره.

لم ينشر كرباكة ديوانا وبقيت أشعاره موزعة بين الجرائد والمجلات وغير مصنّفة، لكن يمكن الإشارة إلى أن شعر الرثاء، وهو من الأغراض التقليدية والقديمة في قول الشعر العربي، شكل أكثر أشعاره التي تتضمّن آراء سياسية وحضارية عامة يمكن أن نستخلص منها رؤية سياسية عامة خصوصا إذا ما أضفنا إلى ذلك الأشعار الآلي صنّفها بعض الدارسين «بالشعر الاجتماعي»⁽³⁹⁾.

إنّ ما يمكن ملاحظته في البدء، هو الصيغة والرشيقة والسلسلة وغير المتكلفة في القول الشعري لدى كرباكة بما في ذلك شعره الاجتماعي فضلا على شعر الوجداني والعاطفي الذي يوحى بمناخات أندلسية يكرسه إعجابه بإبن زيدون شخصيا وشعريا، مثلما تبين ذلك قصائده الجميلة مثل «قيتارتي»⁽⁴⁰⁾ و«إليها»⁽⁴¹⁾ و«كان زمان»⁽⁴²⁾ و«أمسيات البنفسج»⁽⁴³⁾.

و تتميز الرؤية السياسية لدى كرباكة بعد تقييمي وتاريخي للحضارة العربية الإسلامية التي يفتخر بالانتماء إليها باعتبارها ركيزة هويته التونسية التي يريد أن تكون متجددة في شخصيتها الثقافية والحضارية ومفتحة على التقدم وأسبابه داعيا الشباب إلى كسب رهانات العلم والمعرفة (قصيدة: «تحية»).

روضة الشرق الذي أنبتكم * حقها اليبس وإشتقها الكرب
فإلى الإحياء بإنشأتها * وإلى الإنقاذ من هذا الوصب⁽⁴⁴⁾
معتبرا أنّ النخبة الصادقة (المزدوجة التكوين الأصل
والحديث) معنية قبل غيرها بتحقيق نهضة البلاد⁽⁴⁵⁾.

فالنهضة تتحقق بالعلم الذي وجب أخذه حيث تطوّر وإزدهر في بلاد الغرب، لذلك بين كرباكة عقيدته التحديثية بدعوته المزدوجة إلى الحفاظ عن الهوية الثقافية والانفتاح على الحداثة والعلوم الجديدة: (نشأة العلم):

في ذمام الله سيروا ظافرين * نشأة العلم وخير المرسلين
وأدخلوها أرض باريس وما * هي إلا معرض للعالمين

...

وأذكروا ما شئتم عن أمة * سادها الجهل وأعمتها الأفون
إنتمو آمالها وما أملت * أنتو ملجأها العالي الحصين
هي ترجو اليوم في بعثكم * ذلك الأسى من الداء الدفين⁽⁴⁶⁾

معتبرا أنّ الشباب هو قوّة التغيير والإصلاح والنهضة
يا شباب اليوم هل أنتم غدا * طالعو التجديد بين المصلحين⁽⁴⁷⁾

خصوصا وأنّ حال البلاد بالغ درجة عليا من الإنهيار
وتصيح للخضراء تندب حظّها * في العاملين ورزأها المتوالي
ثقل النوائب أوهنت أوصالها * فهوت تنن بطائل الأثقال⁽⁴⁸⁾
مؤكد أنّ للصحافة دور وطني ينتظره الشعب والنخبة والحاكم،
فطالبها قائلًا:

فأصحب بقولك لا تخف وأنقد لهم آثارهم في الحق غير مبال⁽⁴⁹⁾
ولما كانت حياته الخاصّة وتجدّره في سلوكيات «هامشيّة» حول
«جماعة تحت السور» مادة للإنتقاد، فقد عمد كرباكة في بعض
أشعاره إلى تأكيد عقيدته الدينيّة مثل قصيدة «مدح الرسول»⁽⁵⁰⁾
وقصيدة «رمضان المعظّم»⁽⁵¹⁾. ومن المفيد أن نؤكد أن فهم كرباكة
للعقيدة الدينيّة الإسلاميّة يتجدّر في تأويل معتدل ومنفتح على
مقتضيات التقدّم الحضاري والاجتماعي مع التمسك بمقومات
الهويّة الثقافيّة والدينيّة للمجتمع. وإن سجّل بعض الدارسين⁽⁵²⁾
الموقف المعادي للسفور الذي تبناه كرباكة على أساس تعليل
ديني صارم وذلك في نقده لمبادرة منوبيّة الورتاني سنة 1924
في محاضرتها التي طالبت فيها بإقرار حقوق المرأة التونسية ونزع
الخمار عنها كعلامة لإضطهادها، حيث كتب:

أعقلية الإسلام هل يرضيك * هتك الحجاب ومس شرع نبيك
 ما رأيت أفي التبرج زبرج * يا سواة القوم الألي ولدوك
 ما أنجبوك لكي تكوني سبة * للغير يشناهم بها تشانيك
 تالله داعية التهتك لم * تراعي الدين لم ترعى حمى أهليك
 ماذا يضرك ذا الحجاب وحرزه * حتى أنبريا تسفهين ذويك⁽⁵³⁾

لكن هذا الموقف الدفاعي عن الحجاب كان مبررا بضرورة الوقوف ضد سياسات الإدماج الاستعمارية وما رافقها من جهود التبشير والتجنيس ومحاولات طمس الشخصية الحضارية التونسية الأمر الذي إنتفضت ضده قوى الحركة الوطنية (الدستورية) التي كانت تدعم سياق تأكيد الذات الوطنية التونسية كذات خصوصية ومستقلة عن الكيان الاستعماري ومحقة في استقلالها عنه، من جهة أخرى، وبعد تبيين أهمية مسألة الدفاع عن حقوق المرأة وضرورة تحررها في مختلف مجالات الحياة، مثلما دعى إلى ذلك طاهر الحداد (1899 - 1935). كتب كرباكة معلنا مساندته للحداد وكتاب «إمرأتنا في الشريعة والمجتمع» (1930) قصيدة: كلمة بريئة:

ليومك في الأوهام والشبهات * أغر الضواحي خالد الصفحات
 وقفت لدين الله في جبهة الردى * تكافح عنه البهت والنزاعات
 تصارع فيه الجهل والزيف آنة * و تدفع حيناً عنه طعن العداة

ومعلنا تبنيه مضمون دعوة الحداد:

و ما سبب الأنكاد إلا جهالة البنات

وإبقاؤهن مثل موات

وما ذلك أصل الدين حاشاه الله

جمود رعات أو همود ذوات⁽⁵⁴⁾

و يرافق الموقف التحرري لدى كرباكة إزاء مسألة المرأة موقف موازي يدعو إلى التضامن الاجتماعي بين الناس ووجوب مساعدة الضعفاء:

أنت يا هذا، أذكر الواجب نحو * المساكين ونحو الضعفاء
وأذكر الجائع والمنكوب والمعتري * البائس والمـرتجف
ثم جد حسب الذي يوجبـه * داعي الخير ومفروض الوفا⁽⁵⁵⁾

وتتميّز أشعار الرثاء لدى كرباكة بخصوصيّة جليّة تحتاج دراسة معمّقة، حيث تبرز تلك الأشعار ميلا لدى قائلها إلى مقارنة قضايا هامّة شغلت بال الشخصية المـرثية أو أثّرت عليه أو قضايا حددت المراحل التاريخية التي عاشتها. ففي قصيدة: «لبس الشرق الحداد»⁽⁵⁶⁾. عالج كرباكة أحوال الشعوب العربيّة الـراحة تحت نير الاستعمار والجهل والتخلف.

«لم زالوا في إختلاف بينهم * وهمو للغير أحلاس إضطهاد
فرطوا في الدين والدنيا * وقد أفرطوا في كل غي وفساد
يرضون النصـح من بيّتهم * ويصيغون إلى غش الأعداء

وفي رثاء أحمد شوقي، عالج كرباكة أوضاع اللغة العربيّة مناديا بدعمها وإحياء فعاليتها وإشعاعها:

لغة الكتاب تنزّلت علوية * فأعدتها علوية حصانة ومكان
حيث أن شوقي كان...

أجلّ من جعل العروبة في بلاد * الغرب ذات حصانة ومكان

و يواصل كرباكة التفكير في أحوال «الشرق» عروبة وإسلاما في قصيد رثاء جبران خليل جبران «قد مات شهيدا في حب الشرق»، ليرى أن «درك الغرب إدراك بعيد» بسبب أن...

كبر الفرق الذي ما بيننا * جل ما بين ضعيف وجهيد
و بسبب أن...

كل ما فيها عتيق وفانع * لم يعد يصلح في هذي العهود⁽⁵⁷⁾

وتعود ذات المعاني في رثاء محمد المويلهي⁽⁵⁸⁾ ومعروف الرصافي⁽⁵⁹⁾ مع تأكيد على أزمة المثقفين العرب إزاء تعقد أوضاع بلدانهم ووهنها، ولكن رغم النزعة الواقعية النقدية التي هيمنت على تلك القصائد فإن كرباكة عمق من خلالها التأكيد على أن كل من مسائل النهضة والاستقلال والتحديث والتقدم تشكل تحديات ممكنة التحقيق إذا ما توفرت شروطها.

من جهة أخرى، أكد كرباكة على سوء حالة المثقف والنخب المصلحة في المجتمع القابع تحت وطأة الاستعمار بمناسبة قصيد رثاء أبي القاسم الشابي (1909 - 1934)، حيث كتب:

يا أبا القاسم إسترح من الناس * ولا نكر ولا نكرات
فالزمان الذي عرفته مازال * مجدا في الغدر والنكبات
والبلاد التي توطنت لم تفتأ * تجرّع مرائر الأزمات
والعباد الألى الفت يلحون * دواما في البغي والمنكرات
والبقايا من الصحابة قد باتوا * وقد بات سعيهم في شتات⁽⁶⁰⁾

لكن كرباكة، يعود إلى تقاؤل هادي بمناسبة رثاء البشير صفر (1865 - 1917) بعد مرور عشرين سنة على موته، ليقول بوضوح

أنّ البذرة التي زرعها البشير صفر (كزعيم لحركة الشباب التونسي (1907)) قد بدأت تعطي ثمرتها في أواخر السنوات الثلاثين وما شهدته من تطوّرات في عمل الحركة الوطنيّة التونسية (الحركة الدستوريّة) مما يؤكّد إلّزام كرباكة بمسار التحرّر الوطني ودعمه له وإنصهاره في السياق التاريخي الذي صنعه... ففي قصيدة: «رضي الله على جهادك»، كتب:

قم أبا الشعب هو ذا الشعب قاما * أثمر الغرس بعد عشرين عاما
أنت أنبتته هدى وإتحاد * أو إعتزا ما ونعرة ونظاما
فبدا كالربيع كلّ روضا * ومشى كالشعاع شقّ ظلاما

...

نشوة في الشعور منك أثارت * في النفوس مثلجات ضراما
فإستوى الهامدون بالأمس أنقاضا * حفاظا يسابقون المراما ⁽⁶¹⁾

رغم تقليدية النمط الشعري (غرض الرثاء) فإنّ صيغة الكتابة ومضامينها لدى كرباكة لم تغرق في النماذج التقليدية المتكلّفة وبدأت خفيفة متجدّدة تعكس روح التحديث والتجديد التي قادت ممارسة الكتابة لديه مع التأكيد على إنصهارها فيما وسمناه بالسياق التاريخي الثقافي الخاص بتأكيد الهوية الوطنيّة التونسية سياسيا وثقافيا. وإن أكّد محمّد الفاضل بن عاشور (1909 - 1970) على أنّ الروح الشعريّة لدى كرباكة تكوّنت بقوة مراسه للأدب وشغفه بالفن البلاغي «مع الذي إمتزج بميول عواطفه الغريزيّة إلى الجمال والحب والأنس والمتعة» ⁽⁶²⁾ فإنّ الخيط الناظم في منجزه يبقى في تجذّره في الإلتواء إلى ما وسمه البشير بن سلامة بـ«تيار التجديد» في تاريخ الأدب في تونس المعاصرة ⁽⁶³⁾.

كان إنتماء كرباكة إلى السياق التاريخي الثقافي لتأكيد الذات الوطنية التونسية من خلال نزعتة الأدبية التجديدية، مثلما كان إنتمائه إلى المجتمع التونسي الكولونيالي يمر عبر مخالطته اللصيقة بما وسم بـ«هامشية» «جماعة تحت السور» التي لم تكن سوى تعبيراً عن رفض «مجتمع الإحتقار» (أكسيل هونيت) لذلك كان سلوك كرباكة في الحالتين منطلقاً من موقف خاص متميز بروح النقد والبحث عن البديل الأرقى أو المأمول دون أن يكون ذلك على أساس «التضحية الراديكالية» (تيري إغلتن) أو العدمية الرافضة للماضي والحاضر والمستقبل في آن.

هوامش

- (1) ولد عبد الرزاق بن البشير بن الطاهر كرباكة في مدينة تونس، وهناك إختلاف بخصوص سنة ميلاده، حيث يرى البعض أنّه ولد سنة 1898 وفي حين يرى البعض الآخر أنّه من مواليد سنة 1901. (و هو التاريخ الأكثر تداولاً)
- (2) J. Ganiage : Les origines du protectorat Français en Tunisie (1861 – 1881) PUF – Paris. 1959.
- (3) محمّد السنوسي: النازلة التونسية. تحقيق محمّد الصادق بسيس. الدار التونسية للنشر – تونس 1976، ص 93 وما بعدها وص 299 وما بعدها.
- (4) د. زهير الذواودي: شغف الاستقلال. الدار العربيّة للكتاب. تونس: 2007 ص 51 – 106.
- (5) أبو القاسم محمد كرو: عبد الرزاق كرباكة، سلسلة أعلام المغرب العربي، تونس 1965.
- (6) رشيد الذواودي: جماعة تحت السور، الهيئة المصريّة للكتاب، القاهرة 2004
- (7) مصطفى كريم: السلطة الاستعماريّة والحركة الوطنيّة خلال السنوات الثلاثين. دار أليف – تونس 1990، ص 201 (بالفرنسيّة).
- (8) عمر قفصيّة: أضواء على الصحافة التونسية، دار بو سلامة، تونس، ص 58 وما بعدها.
- (9) هذه المعطيات لا تعتبر الصحافة الصادرة بكل من اللغتين الفرنسيّة والإيطاليّة والموجّهة للجاليّتين المقيمتين في تونس، مع الإشارة إلى وجود جرائد باللّغة العبريّة موجّهة لليهود التونسيين.
- (10) إ. شاتلان الحياة الأدبيّة والفكرية في تونس من 1900 إلى 1937. دار فؤوتار. باريس 1937. ص 35 (بالفرنسيّة).
- (11) محمّد صالح الجابري: الشعر التونسي المعاصر، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط 3. 2000، ص 234. لكن أغلب الدارسين لجماعة تحت السور لا توافق رأي الجابري، مثل عز الدين مدني ورشيد الذواودي ومصطفى خريّف وإبتسام الوسلاتي.

(12) كتب إسماعيل فائزة: «الفرد الهامشي من الناحية السياسيّة هو ذلك الشخص الذي لا يساهم في الحياة السياسيّة لمجتمعه (...). كما تتجسّد هذه الظاهرة من الناحية الاجتماعيّة في العزل عن المجرى الرئيسي لثقافة المجتمع وعادات العمل والتوجّه الإستهلاكي وطرق التفكير...»
راجع: نحو رؤية جديدة لدراسة فقراء المدن. مجلة: جدل. كتاب العلوم الإنسانية (عدد خاص: الهامشون في المدن العربيّة) دمشق دار كنعان، عدد 4، 1993 ص 14 - 15.

(13) إبتسام الوسلاتي: الهامشيّة في الأدب التونسي: تجربة جماعة تحت السور، دار الجنوب، تونس 2019 ص 33 - 35 وما بعدها

(14) رشيد الذوّادي: جماعة تحت السور - مصدر مذكور ص 130.

(15) إبتسام الوسلاتي: الهامشيّة... مصدر مذكور ص

(16) المصدر السابق: ص 104

(17) نفس المصدر: ص 107.

(18) رشيد الذوّادي: جماعة تحت السور... مصدر مذكور ص 130

(19) أورده محمد أنور بوسنينة: عبد الرزاق كرباكة، حياته - تراثه... وزارة الثقافة ط-1 تونس 2000 ص 39.

(20) أهم الأغاني التي كتبها كرباكة: ما ثناها (غناء فتحية خيري) - الندم ما بقاش يفيدك (صليحة)، يا هاترة تالعين (فتحية خيري). هونية والدنيا هنية (فتحية خيري) - يا محرمتها (فتحية خيري) - شكيت وماريت (علي الرياحي) - يفيق الحب (علي الرياحي)، من توا خير يا حوا (صادق ثريا)، كي بغيت تطير يا حمامة (الهادي الجويني)، مكتوب (الهادي الجويني) يا للى تعرف قللي علاش (نعمة)...

(21) محمد أنور بوسنينة: عبد الرزاق كرباكة... مصدر مذكور، ص 28

(22) كقولہ:

يا شقيق البدر في سماها غصن الزهر في ماه
أنا طوع الأمر في هواك كيف ما كان جفاك ورضاك

أوردها بوسنينة: مصدر مذكور: ص 39.

(23) محمد أنور بوسنينة: عبد الرزاق كرباكة: مصدر مذكور ص 41.

(24) أبو القاسم محمد كرو: عبد الرزاق كرباكة، سلسلة أعلام المغرب العربي تونس 1965 ص 17.

(25) قوله:

كسر الكاسو بدمعتي محيت المكتوب

وكذبت ناساللي قالوا محال يتوب

(26) مصطفى خريّف: كرباكة والأدب الشعبي: الثريا. أبريل 1945، ص 18.

(27) إبتسام الوسلاتي: الهامشيّة... مصدر مذكور، ص 133.

(28) الهادي العبيدي: مقدّمة الفوج الأوّل من أغاني كرباكة. نشر الشاذلي

الزواق الكتبي، تونس دت. ص 5

(29) أبو القاسم محمد كرو: كرباكة... مصدر مذكور ص 18

(30) عز الدين المدني ومحمد السقّانجي: رواد التّأليف المسرحي في تونس،

الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1986. ص 10 - 11.

(31) المسرحيات المعروفة لكرباكة هي:

أم ملال، ولادة ابن زيدون، أميرة المهدية، عايشة القادرة...

(32) محمّد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبيّة والفكرية في تونس، الدار

التونسية للنشر، تونس 1972، ص 196.

(33) عز الدين المدني ومحمد السقّانجي وإبتسام الوسلاتي في المصادر

المذكورة سابقا.

(34) زين العابدين السنوسي: من رواد نهضتنا الأدبيّة: عبد الرزاق كرباكة.

التجديد. عدد 7، أكتوبر 1961.

(35) عز الدين المدني ومحمد السقّانجي: رواد التّأليف... مصدر مذكور ص

16

(36) إبتسام الوسلاتي: الهامشيّة... مصدر مذكور؛ ص 174

(37) زين العابدين السنوسي: من رواد نهضتنا... مصدر... ص 19

(38) رشيد الذوّادي: جماعة تحت السور... مصدر مذكور، ص 131

ومحمد الحبيب: كرباكة... الثريا، أبريل 1945 ص 11.

(39) محمّد أنور بوسنينة: عبد الرزاق كرباكة... مصدر مذكور، ص 37.

(40) نشرت بمجلّة الثريا، عدد 4 س 2 - أبريل 1945. ص 4

(41) أوردها محمّد أنور بوسنينة... مصدر مذكور ص 71.

- (42) مجلّة الثريا: عدد 4، سنة 2 أفريل 1945. ص 4.
- (43) مجلّة الثريا: عدد 41. سنة 7 أفريل 1950.
- (44) جريدة الزمان: بتاريخ 25/05/1931.
- (45) المصدر السابق.
- (46) مجلّة الثريا: ماي 1945.
- (47) المصدر السابق.
- (48) مجلّة الثريا: السنة 4. عدد 1 و2 - 1947
- (49) نفس المصدر
- (50) مجلّة الثريا: فيفري 1946.
- (51) حبيب بن فضيلة: عبد الرزاق كرباكة، حياته ونماذج من شعره، دار المعارف، سوسة 1997 ص 78 - 79 - 80.
- (52) أحمد خالد: شخصيات وتيارات، مطبعة الشلي. سوسة. دت، ص 120 - 121.
- (53) حبيب بن فضيلة: كرباكة... مصدر مذكور ص 81.
- (54) ألفت بمناسبة حفل تكريم الطاهر بن حدّاد عند صدور كتابته «إمرأتنا في الشريعة والمجتمع».
- (55) حبيب بن فضيلة: كرباكة... مصدر مذكور: ص 97.
- (56) حبيب بن فضيلة: كرباكة... مصدر مذكور ص 121.
- (57) جريدة الزمان بتاريخ 15 جوان 1931.
- (58) قصيدة «شعلة الفكر»: رابع بن فضيلة: عبد الرزاق كرباكة: مصدر مذكور ص 111.
- (59) مجلّة العالم الأدبي: فيفري 1930.
- (60) حبيب بن فضيلة: كرباكة... مصدر مذكور... ص 140.
- (61) مجلّة الثريا: جوان - جويلية 1945
- (62) محمّد الفاضل بن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس. الدار التونسية للنشر. تونس 1972. ص 196.
- (63) البشير بن سلامة: التيارات الأدبية في تونس المعاصرة، دار المعارف، سوسة، د. ت. ص 27 وما بعدها.

الشاعر الذي ملأ الدنيا

وشغل الناس

الطيب بن فضيلة

هو من ألمع شعراء عصره كتب الشعر والزجل والأغنية كما كتب القصة والمسرحية والمقال الأدبي وهو أيضا من جماعة تحت السور وقد عمل في حقول متنوعة كالوظيفة الإدارية في مشيخة المدينة وفي المسرح (ملقن) وفي الصحافة (محرر) وفي الصناعة (شواشي / أي يصنع الشاشية) وفي الإذاعة (محاضر) وفي التعليم مدرس وكان انموذج الأديب في عصره ذلك هو عبد الرزاق كرباكة الذي تربّع على إمارة الشعر في تونس سنة 1932 ولم يعترف في هذا المجال بإمارة الشاذلي خزندار.

إسمه ومولوده ونشأته:

هو عبد الرزاق بن البشير بن الطاهر كرباكة ولد في تونس العاصمة سنة 1901 في عائلة هاجر أجدادها من الأندلس في القرن الحادي عشر للهجرة وقد كانوا على صلة وثيقة بالبلاط العبادي في اشبيليا قبل انهيار ملك المعتمد بن عباد ونفيه إلى المغرب الأقصى. ولقب كرباكة يختلف في رسمه بين (كاراباكة)

وكرباكة ويذكر أبو القاسم محمد كرو ان الشاعر كان يكتفي برسم اسمه مختصرا -كرباكة⁽¹⁾

ويقول حسن حسني عبد الوهاب لا يستغرب من صيغة هذا العلم فهو إسم لقرية صغيرة تقع شمال مدينة مرسية في الأندلس وكانت ترسم بالقاف لا بالكاف فيقال (قاراباكة) كما اثبتته ياقوت الحموي في معجم البلدان⁽²⁾ وهذه القرية لا تزال موجودة في جنوب اسبانيا وتحمل نفس الإسم وينطقها الاسبان بـ(الكاف) لا بـ(القاف).

ويذكر عثمان الكعاك أن الإسم الكامل للشاعر هو عبد الرزاق كرباكة العبادي الشريف⁽³⁾ نشأ في عائلة أندلسية الأصل وتمتهن صناعة الشاشية وفي عام 1907 ألحقه والده بالمدرسة القرآنية الأهلية لكنه سرعان ما حرم من حنان الأب الذي توفي سنة 1908 . وفي سنة 1911 انتقل عبد الرزاق كرباكة للدراسة في المدرسة العرفانية وهناك تتلمذ على الشيخ محمد منا شو .

وفي سنة 1917 التحق بجامعة الزيتونة لكنه انقطع عن مواصلة الدراسة سنة 1921 قبل الحصول على شهادة التطويع ليدخل في غمار الحياة . وتبقى مسألة التحاقه بالمدرسة الصادقية مشكوكا في صحتها لأن لا أحد ممن كتبوا عن كرباكة أشار إليها باستثناء محمد صالح بن عمر اذ يقول «درس كرباكة بالصادقية ثم بالزيتونة»⁽⁴⁾

(1) أبو القاسم محمد كرو: كتاب عبد الرزاق كرباكة - سلسلة أعلام المغرب العربي ص7

(2) حسن حسني عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي ص306

(3) عثمان الكعاك: مقال له في مجلة الثريا 1945 (عدد خاص بكرباكة)

(4) محمد صالح بن عمر : كتاب عن الشعر إصدارات بيت الحكمة تونس 1990

لقد قضى عبد الرزاق كرباكة ربع قرن في العمل الأدبي الزاخر: اقرأ معلما وألف الأغاني أديبا وكتب المقالات صحفيا ونظم الشعر في كل موسم ومناسبة وحفل وخطب على كل منبر وثابر على تقديم رواياته أسبوعيا في المذياع التونسي حتى ليلة موته⁽¹⁾ وكان موته مفاجئا في 15 مارس 1945 وهو على ما هو عليه من صحة جيدة ونشاط. توفي أمير الشعراء عبد الرزاق كرباكة مثله مثل الشيخ العربي الكبادي (1880 / 1961) الأندلسي الجذور هو الآخر ولئن تزوج الكبادي أكثر من مرة فإن عبد الرزاق كرباكة لم يتزوج ليعيش حياة التحرر على جميع المستويات حياة زاخرة بالنشاط في شتى المجالات وتيسيرا لترصد نشاطه لا بد من التوقف في المحطات التالية : كرباكة الاجتماعي. ثم الصحفي والكاتب القصصي وكرباكة كاتب الأزجال والأغاني ثم المسرحي والمجالسي ثم كرباكة الشاعر.

كرباكة الاجتماعي:

خاض عبد الرزاق كرباكة معترك الحياة مبكرا بحكم ظروفه العائلية فقد عمل موظفا بإدارة مشيخة المدينة (تونس) لفترة قصيرة لكنها مهمة لأنها أكسبته خبرة ظهرت أثارها سنة 1931 عندما التحق بالحجرة التجارية التونسية وهناك دافع عن صناعة الحرير وعن صناعة الشاشية بخطبه وبما نشره من مقالات في الصحف دعا فيها إلى تأسيس جامعة النقابات التونسية للتجار والصناعات⁽²⁾ وغيره الشاعر عبد الرزاق كرباكة عن صناعة الشاشية مردها أن عائلته

(1) مجلة الندوة - جوان - 1953 نبغاء الأدب التونسي الذين فقدناهم ص 5

(2) الهادي العبيدي: كرباكة الاجتماعي - مجلة الثريا 1945

كانت تمتهن هذه الصناعة التي توالى عليها الأخطار آنذاك بهجمة الشاشية الميكانيكية الواردة من تشيكوسلوفاكيا والنمسا إضافة إلى سياسة المستعمر المخربة لاقتصاد بلادنا.

يعتبر دخول عبد الرزاق كرباكة معترك الحياة دخولا مبكرا لأنه عمل في إدارة المشيخة وله من العمر 25 سنة كما اشتغل معلما مدة من الزمن في نفس الفترة حيث يذكر عثمان الكعاك أنه «من سنة 1926 إلى سنة 1936 كنت اجتمع مع عبد الرزاق كرباكة في نادي مطبعة العرب وكان وقتئذ يقضي يومه بين القاء دروسه على تلامذة المدرسة القرآنية وبين العمل بإدارة مشيخة المدينة⁽¹⁾».

كرباكة الصحفي:

ابتدأ عبد الرزاق كرباكة عمله الصحفي في جريدة المضحك سنة 1921 حيث كان ينشر مقالاته على صفحاتها ثم ترأس تحريرها في نفس تلك السنة عندما تخلى حسين الجزيري عن رئاسة تحريرها وقد ذكر الهادي العبيدي «ان كرباكة قد مشى خطواته الأولى في هذه الجريدة حيث كان ينظم أشعارها وينشر أخبارها وقد وضع في أعلاها (محرره معروف)»⁽²⁾ وبعد مدة احتجبت هذه الجريدة الهزلية (المضحك) فانضم كرباكة إلى أسرة تحرير جريدة «لسان العرب» التي نشرت له فصولا في الأدب والاجتماع سنة 1930 تحت عنوان «حديث الثلاثاء».

(1) عثمان الكعاك: ذكريات عن صديق - مجلة الثريا أبريل 1945

(2) الهادي العبيدي: كرباكة الصحفي - مجلة الثريا 1945

وفي سنة 1932 تم انتدابه في جريدة الزمان محررا ثم محررا أول ثم أصبح رئيسا لتحريرها فجعل منها جريدة محبوبة مهابة إذ يقول أبو القاسم محمد كرو «لقد رفع كرباكة مقام جريدة الزمان بين الصحف وجعل منها لسانا يدافع عن الطبقة العاملة الكادحة وعن أصحاب الصناعات والمهن اليدوية الصغيرة⁽¹⁾ كما عمل عبد الرزاق كرباكة محاضرا بالإذاعة وواضب على تقديم رواياته أسبوعيا على أمواج الأثير الذي كان يث له بين الحين والآخر الأغاني الذي كتب كلماتها.

كرباكة الكاتب القصصي:

جاء في كتاب أعلام المغرب العربي: عبد الرزاق كرباكة ما يلي: «... أما كرباكة القصص فذلك ما تجلى لنا في أقاصيصه الصغيرة المختصرة التي كان نشرها في المجلات ويذيعها من محطة إذاعة تونس مساء يوم الإربعاء من كل أسبوع تحت عنوان «عبرة في قصة» التي تعطينا أمثلة حية لأرائه الاجتماعية والسياسية والتاريخية»⁽²⁾

ومن عناوين القصص التي نشرها كرباكة في مجلة الثريا سنة 1945: موسم الحصاد - أبو القطط - مهجة - رفاة السفينة - بدعة وحماد وغيرها من القصص وكلها تحت يافطة (عبرة في قصة)

ويذكر أبو القاسم كرو «ان أقاصيص كرباكة هي أقرب للخواطر الأدبية منها إلى الأقصوصة»⁽³⁾

(1) أبو القاسم كرو: عبد الرزاق كرباكة ص 14 سلسلة أعلام المغرب العربي.

(2) المرجع السابق ص 14

(3) المرجع السابق ص 15

ويعتبر هذا الرأي صائباً دقيقاً باعتبار أن «اول عمل قصصي للقصّة في تونس هو قصّة الهيفاء وسراج الليل لصالح السويسي القيرواني وتبعته محاولات أخرى في الثلاثينات لعلي الدوعاجي ومحمد البشروش وزين العابدين السنوسي⁽¹⁾ أي ان أسس القصّة كفن أدبي قائم الذات مكتمل الأركان والخصائص مازالت في طور التبلور آنذاك في الأربعينات.

كرباكة المسرحي:

هو كاتب وسرحي وممثل وملقن ففي سنة 1911 انضم عبد الرزاق عبد الرزاق كرباكة إلى جمعية الشّهامة والعربية كممثل في عام 1920 كان من مؤسسي فرقة الهلال⁽²⁾ وظهرت آنذاك مواهبه كممثل وكملقن ثم أنظم فيما بعد إلى جمعية الآداب عندما تولى جورج ايض ادارتها.

وفي سنة 1924 تأسس الجوق الكاملى وقد تسلم كرباكة إدارته الفنية فتفتح وهذب عدة مسرحيات ونظم لها ألحانا ثم انضم إلى فرقة السعادة لكن مدة انتسابه إلى هذه الفرقة لم تطل حيث ترك المسرح وتحول إلى مجال

الصحافة وفي سنة 1935 عاد كرباكة إلى المسرح حيث كتب المسرحيات التالية: عائشة القادرة -أميرة المهديّة - ولادة وابن زيدون وجزءا من مسرحية عن لبنى وقيس بن ذريح

(1) مجلة الأقلام العراقية (عدد خاص بالأدب في المغرب العربي) ع9 جوان 1976 ص23

(2) من مؤسسي فرقة الهلال : محمد بحرون أحد قدماء جمعية الشّهامة العربية وعبد الرزاق كرباكة وحبيبة مسيكة وآخرون.

ويذكر محمد الحبيب المحامي في مجلة الثريا متحدثاً عن كرباكة المؤلف المسرحي ان «جمعية الاتحاد المسرحي قد أخرجت له مسرحيته الغنائية الخالدة (عائشة القادرة) ومسرحيته الأساسية التاريخية (أميرة المهدية) وقد تم تقديم الأولى على المسرح سنة 1935 ووقع تقديم الثانية بعد ذلك». كما ألف كرباكة مسرحية ولادة وابن زيدون التي أذيعت بمحطة الإذاعة إضافة إلى قيامه بتصميم مسرحيتين الأولى بعنوان (الجازية) والثانية بعنوان (غريب والمأمون) وكان قد وعد بكتابة مسرحية عن (أم ملال)⁽¹⁾

كرباكة المجالسي:

كانت لعبد الرزاق كرباكة مجالس متعددة مع الأدباء في عصره فقد انتسب إلى جماعة تحت السور وكان يحضر مجالسهم في مقهى تحت السور كما كانت له مجالس في عديد الأماكن الأخرى من ذلك مثلاً أن عثمان الكعاك في مقال له بعنوان «ذكريات عن صديق» نشرته مجلة الثريا (عدد أبريل 1945) يقول «تعرفت على عبد الرزاق كرباكة يسوق السرائرية» ويضيف «في دكان ضيق من زقاق المدرسة السليمانية كانت تجتمع نخبة من الكتاب والشعراء من الشباب الزيتوني والمدرسي ضمن هيئة الجامعة الزيتونية وكان يختلف إليه عبد الرزاق كرباكة فيشتبك في مجادلة أدبية مع محمد الحبيب أو زين العابدين السنوسي أو أحمد الدرعي أو الطاهر الحداد أو أحمد توفيق المدني ويعتز كل واحد برأيه ويصر كرباكة على رأيه»⁽²⁾

(1) محمد الحبيب المحامي: مجلة الثريا (عدد خاص بكرباكة) أبريل 1945

(2) عثمان الكعاك: ذكريات عن صديق

ويضيف عثمان الكعاك في نفس المقال «... ومن سنة 1926 إلى سنة 1936 كنت أجمع مع عبد الرزاق كرباكة في نادي مطبعة العرب الذي يضم ثلاثة أرباع الشباب التونسي المثقف وكان عبد الرزاق كرباكة يقضي يومه في القاء دروسه على تلامذة المدرسة القرآنية وبين العمل بإدارة مشيخة المدينة وبين الجلوس في مكتب الثقافة كما كانت تلقب به مطبعة العرب».

كرباكة كاتب الأغاني:

عرفت بلادنا في الثلاثينات والأربعينات نخبة متميزة من الشعراء الذين طوروا كلمات الأغاني وهذبوا ذوق الناس كان عبد الرزاق كرباكة أبرزهم ففي سنة 1932 تم أحداث الرشيدية التي ساهمت في رفع مستوى الموسيقى والغناء وفي نفس السنة نظمت مصر مؤتمرا لإحياء الموسيقى العربية وذلك بالقاهرة حضره الفنانون العرب من مختلف البلدان ومن بين أعضاء الوفد التونسي المشارك جلال الدين النقاش وفضيلة ختمي والهادي لعبيدي وخميس الترناو وعبد الرزاق كرباكة وقد جاء في جريدة الزمان مايلي «... ثم أعطيت الكلمة إلى الشاعر عبد الرزاق كرباكة فخطب في الجمهور بما جعله يهتز لما واجهه من الأفكار النيرة والآراء الصائبة فقبل خطابه بالتصفيق الحاد»⁽¹⁾

(1) جريدة الزمان : 11 جويلية 1932

- من ابرز أغانيه التي تذاق اليوم (كي بغيت الطير يا حمامة تبقى على خير وبالسلامة) ألحان الهادي الجويني وأغنية (من توا خير يا حواء) ألحان الصادق ثريا.

كما كتب عبد الرزاق كرباكة مجموعة كبيرة من الأغاني نشر أغلبها في الجرائد والمجلات وقد صدر بعض هذه الأغنيات التي كتبها في كتاب أصدره الناشر الشاذلي الزاوي صاحب المكتبة الزيتونية والمعجب بأهازيج كرباكة ونصوص كلماته العاطفية العذبة وقد صدر الكتاب بمقدمة رائقة عن مكانة كرباكة في الشعر الغنائي وعن نهضة الأغنية التونسية ومقارنتها بالأغنية في الشرق بقلم الهادي العبيدي.

كرباكة الشاعر :

كتب عبد الرزاق كرباكة الشعر الفصيح في شتى الأغراض وقد تألق بما كتبه من قصائد شعرية حفلت بها الصحف والمجلات الصادرة في عصره على غرار مجلة الثريا وجريدة الزمان والوزير خاصة أنه كان في الوزير ينشر قصائده تحت عنوان (صفحات بالية من كتاب الشبيبة «وكان يمضي نصوصه الشعرية هذه بإسم مستعار وهو (الحبيب الأول) وما كتبه كرباكة من قصائد شعرية جعلته يحتل مكانة مرموقة بوائه التربع على عرش الإمارة ذلك ان زين العابدين السنوسي لما فتح مجال السباق بين الشعراء في بلدان المغرب العربي في مجلته العالم الأدبي سنة 1932 لاختيار الشعراء الثلاثة الكبار في تونس والجزائر والمغرب وعرفت هذه المسابقة بالاستفتاء الأدبي كان الشعراء الثلاثة الناجحون هم عبد الرزاق كرباكة بـ173 صوتا ومحمود بورقية بـ158 صوتا والظاهر القصار بـ151 صوتا. وقد اعتبر البعض أن هذا الاستفتاء كان بمثابة المؤامرة للإطاحة بالشاذلي خزندار من إمارة الشعر التي

يبدو أنه قد تربع على عرشها قبل عشر سنوات على الأقل من تاريخ إجراء هذا الإستفتاء.

وقد جاء في كتاب أبو القاسم محمد كرو (عبد الرزاق كرباكة الصادر ضمن سلسلة أعلام المغرب العربي في الصفحة 24 مايلى: «في مطلع العقد الرابع من هذا القرن بايع شعراء تونس واحدا منهم على امارة الشعر عندهم وهو الأستاذ محمد الشاذلي خزندار وولكن إيمان كرباكة بنفسه واعتداده بشعره ومكانته الأدبية دفعاه للعصيان على هذه البيعة فقال «أنا لا أرضى بإمارة السيد الشاذلي خزندار» وبعد أيام وقع الاستفتاء لفائدة كرباكة وسمي أمير الشعراء»

المهم هو ان عبد الرزاق كرباكة شاعر طرق جميع الأغراض المتداولة في عصره فكتب في الغزل والتأمل وفي المدح والثناء والمناسبات وقد كان شعره صادق الإحساس عميق التجربة حيث تعتبر قصيدته بعيدة كل البعد على التكلف فشعره نابع من وجدانه معبر عن مشاعره وأحاسيسه قد مزج فيه بين قوة والأسلوب وجزالة اللفظ وسلاسة التعبير وجمال الصورة ولم يكن كرباكة فقط ذلك الشاعر المنصرف إلى التمتع بملاذ الحياة بل كان شاعرا وطنيا يقول عثمان الكعاك:

«لقد نشأ الشباب المدرسي على حب شاعره الوطني عبد الرزاق كرباكة⁽¹⁾ ورغم مرور حوالي ثمانية عقود على رحيله إلى الرفيق الأعلى لم يصدر ديوانه بعد وقد صدر لنا كتاب عن دار المعارف بسوسة سنة 1997 جمعنا فيه 31 نصا شعريا لكرباكة ونفس تلك القصائد أعاد نشرها محمد أنور بوسنينة سنة 1999 في كتاب له

(1) مجلة الثريا - أبريل 1945

صادر ضمن سلسلة ذاكرة وابداع لتبقى الكثير من نصوصه الشعرية
مبعثرة هنا وهناك في الجرائد والمجلات ويبقى الأمل قائما في أن
يصدر ديوانه في يوم من الأيام.

عبد الرزاق كرباكة والريادة في تطوير القصيدة الغنائية التونسية

إبتسام الوسلاتي

مقدمة

كانت الثلاثينات من القرن العشرين فاتحة لعهد جديد فقد ظهر في المشهد الثقافي التونسي جماعة من المبدعين الذين آمنوا بدور الفنون عامة في تحقيق نهضة شعب يسمو إلى الإبداع ويرنو إلى حياة حرة كريمة، وفي هذا الإطار تدرج محاولات جماعة تحت السور لتخليص الأغنية من ثقل الموروث الذي يكبلها، فكتبوا لذلك المقالات التي تعرّف بدور الموسيقى في النهوض بالذوق العام والارتقاء به، كما نظموا الأشعار الغنائية التي شكّلت علامة فارقة أسهمت في تنقية مواضيع الأغاني من مختلف الشوائب التي لحقتها، ونشير هنا إلى الجهود التي بذلها ثلة من المبدعين في مجال الشعر الغنائي من قبيل علي الدوعاجي ومحمد العريبي وعبد الرزاق كرباكة الذي جاهد بفنّه وروحه وقلمه وكلّ جهد استطاعه في سبيل تدعيم النهضة الفنية.. فأدخل الجديد الرائع، وأبعد القديم المائع⁽¹⁾.

(1) أبو القاسم محمد كرو، عبد الرزاق كرباكة، سلسلة أعلام المغرب العربي، تونس، 1965، ص 18.

وقد بدأت الأغنية التونسية تخطو على مهل درب رقيها وتتخلص من نظرة الإقصاء والتهميش، فاحتلت موقعا رياديا في صرح الثقافة التونسية، ونسلط الضوء في هذا السياق على تجربة عبد الرزاق كرباكة وجهوده في تطوير الأغنية⁽¹⁾، علما أنه خلق مدرسة جديدة في مجال الشعر الغنائي ترسم خطاها من تولي من بعده شؤون الأغنية "فأغاني كرباكة تؤلف وحدها مدرسة جديدة للغناء العربي الحديث في تونس، وتجمع داخل حدودها أكثرية الشعراء الرجالين الذين تستمد منهم اليوم الموسيقى التونسية الحديثة أغانيها وموشحاتها"⁽²⁾. ومن هذا المنطلق سنحاول التوقف عند طبيعة الدور الذي لعبه هذا المبدع بوصفه من رواد الشعر الغنائي في تونس، ثم نرصد أبرز خصائص القصيدة الغنائية عند عبد الرزاق كرباكة.

عبد الرزاق كرباكة من رواد الشعر الغنائي في تونس

لقد ظهرت خلال الثلاثينات مبادرات فعلية تدعو إلى ضرورة تطوير الموسيقى التونسية وتخليصها من وطأة المورث الذي يثقل كاهلها، بحصرها في قوالب تراثية كالمالوف والأناشيد الصوفية والأغاني التي طبع أغلبها بالابتذال والميوعة التي انتشرت بفعل تقليد الأغنية الشرقية بشكل أثر في مضمون الكلمة، وما بين هذا وذاك عانت الأغنية التونسية من الإهمال والغبن في غياب الكلمة الهادفة التي يترنم بها المطربون والمنشدون بواسطة القصائد

(1) أبو القاسم محمد كرو، كرباكة في ذكراه العشرين، في حصاد العمر، تونس، دار المغرب العربي، المجلد 2، ط 1، 1998، ص 62.

(2) أبو القاسم محمد كرو، عبد الرزاق كرباكة، (سبق ذكره)، ص 18.

والأشعار التي تلعب دور مرآة تعكس وجدان الشعراء وأحاسيسهم «فالأغاني «المائعة» ذات الألفاظ السمجة والمعاني «السوقية» والتي لا تصوّر إلا نفوسا مريضة منهكة وطبائع «شريرة» «منحطة» ولا تعبّر إلا عن أفكار «الضفادع» وأحلام» التماسيح» لا يمكن أن تترك في نفوس عامّة الشعب وسواده إلا خوارا في النفس وجففا في الفكر وفسادا في الخلق. والأغاني التونسية من سنة 1890 حتى نهاية الحرب العالمية الأولى كانت - وبكلّ أسف - من هذا النوع المبتذل الرخيص»⁽¹⁾.

وقد تواصلت هذه الوضعية حتى كانت تجربة جماعة تحت السور التي أعاد أفرادها النظر في واقع الأغنية التونسية بالوقوف على أسباب أزمتها، فوجدوا أنّها تكمن في غياب الكلمة الهادفة واللحن الجيد، وسعوا للبحث عن البدائل الكفيلة للنهوض بها فتساقق إيقاع العصر في كلماتها وألحانها عبر نظم القصائد الغنائية بالعامية والفصحى "ولولا جماعة من شعراء الشباب التونسي المتقدين غيرة وطموحا الذايين صباية في وطنهم وأمّتهم قد اندفعت مجاهدة في حماس لما وقف ذلك التيار الجاف من الأغاني المشينة الذي كان يغزو الكرامة والحشمة التونسية ويسمم الأخلاق ويفسد الذوق إلى سنوات ليست بالبعيدة العهد"⁽²⁾.

ويعود اهتمام عبد الرزاق كرباكة بالشعر الغنائي إلى نهايات الحرب العالمية الأولى، لكن خطواته تعثّرت حينها بسبب الجو العام المتسم بغياب الوعي بالدور الذي تلعبه الفنون في ترقية

(1) أبو القاسم محمد كرو، عبد الرزاق كرباكة، (سبق ذكره)، ص 16.

(2) الهادي العبيدي، مقدمة الفوج الأول من أغاني كرباكة، تونس، طبع على نفقة الشاذلي الزاوق الكتبي، (د.ت)، ص 4.

حياة الشعب، ولم يبرز المجهود الحقيقي لكرباكة إلا مع مطلع الثلاثينات بعد تأسيس نادي الرشيدية سنة 1934 في إطار الدعوة التي راجت بضرورة العمل على النهوض بالموسيقى التونسية والارتقاء بها، وهذا عين ما أكدّه أحد الباحثين في معرض حديثه عن شخصيّة عبد الرزاق كركباكة الذي لم يكن يملك القدرة على تحقيق مشروعه في النهوض بالأغنية التونسية لولا «وجود نخبة ممتازة من الملحنين والمطربين الجدد، الذين عملوا على رفع مستوى الموسيقى والغناء... وقد ساهم الملحنون المجددون مساهمة كبيرة في إظهار عبقرية الفقيّد بما بذلوه من جهد في تلحين أغانيه تلحيناً جديداً مبتكراً»⁽¹⁾.

التفّ المبدعون حول الرشيدية إيماناً بالمكانة التي تحتلّها الأغاني في حياة الشعب، فلمعت عدّة أسماء أضاءت سماء الفنّ وحقّقت طفرة نوعيّة في مجال التّأليف والتلحين، وبذلك تغيّر المشهد الموسيقي بظهور نوعيّة مختلفة من الأغاني الهادفة والراقية في صورها ومعانيها أمضتها أسماء مثل عبد الرزاق كركباكة وأحمد خير الدين وعلي الدوعاجي ومصطفى خريف وجلال الدين النقاش حيث «لم يتحسّن وضع التّأليف والإنتاج والمحافظة على التّراث الذي ضاع فيه الكثير إلا بتأسيس الرشيدية التي التفّ حولها جمع من الشعراء والملحنين الذين أخذوا على عاتقهم إعادة الاعتبار للفنّ الموسيقي والذّوق السّليم ووضع الأغنية التونسية الحديثة المبنية على الكلمة المتّقاة واللّحن المعبّر. وكانت هذه المبادئ عقداً يجمع بين طموحات كلّ المثقّفين التونسيّين بصفة عامّة لذلك

(1) أبو القاسم محمد كرو، عبد الرزاق كركباكة، (سبق ذكره)، ص 18.

فإننا نجد ملحنين ومطربين كانوا يعملون خارج الرّشيدية من أجل تحقيق هذه الأهداف السّامية وفرض جماليات جديدة»⁽¹⁾.

وكان لظهور الرّشيدية أعمق الأثر في وضع أسس الأغنية التّونسيّة الحديثة، إذ أسهمت في توحيد جهود كتّاب الأغاني إلى جانب الملحنين والمطربين حول غاية واحدة هي إعادة الاعتبار لهذا اللون الفنّي لصدّ المحاولات التي يقوم بها المستعمر وزبانيته حتّى لا يكون لتونس صحافة وفنّ ورسم ومسرح وأدب وشعر. وقد التّف جماعة تحت السّور حول هذه الفكرة فناضلوا في سبيل تغيير عادات التلقّي عند الجمهور، فيأنس من ثمة للأغاني الهادفة ذات الألفاظ الرّاقية بعد أن تعودت أذنه الاستماع إلى الأغاني الماجنة والخليعة، فقد «آمنوا وهم في عزّ الشّباب بقيم الأدب والفنّ وغامروا في سبيلها بكلّ الكيان لا بطرف اللّسان حين لم يكن للأدب وللّفنّ في عامّة البيئة من الاعتبار إلّا على أنّهما مفسدة للأخلاق ومضيعة للعمر. فتحدّوا بعزم الفتوة الطّروف المعاكسة وجاهدوا بالقلم أو الرّيشة أو بأوتار الآلات أو رنّات الحناجر أو بحركة الوجه وإشارة اليد حتّى يكون لتونس الحديثة قصص وشعر ورسم وموسيقى وغناء ومسرح وتمثيل. وكان يحدوهم في ذلك وعيهم بواجب المساهمة في إنماء إحساس الأمّة مع الطّلائع السّياسيّة المناضلة، بذاتيّتها ضاربة الجذور في أعماق التّاريخ متطوّرة وفق روح العصر»⁽²⁾.

(1) محمد سعادة، الإنتاج الموسيقي التونسي ماضيا وحاضرا، الحياة الثقافية، السنة 23، العدد 95، ماي 1998، ص 24.

(2) الهادي العبيدي، تحت السور فصول في التجديد والإصلاح، تونس، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، (د.ت)، ص 7.

تركزت مجهودات عبد الرزاق كرباكة على تطوير مستوى الأغاني وتخليصها من ثقل المواضيع التي تفرغها من كل شحنة قيمية ومعيارية، ولكن لن يتسنى فعل ذلك في ظل النظرة التقليدية التي كانت تقصي الفنان وتهمله وترفضه. فكانت مهمته صحبة أصدقائه من جماعة تحت السور تتمثل في العمل على إعادة الاعتبار للفن وللقائمين عليه بتخليصهم من الأحكام الأخلاقية السلبية وتحريرهم من الغبن والإهمال والتشويه، وفي هذا السياق برز الاهتمام بتدعيم حضور العنصر النسائي في الساحة الغنائية بعيدا عن ارتباط الفنانة في الوعي الجمعي بالجنس والميوعة والانحلال الأخلاقي، حيث أوكل إليها هؤلاء المبدعون مهمة أداء أغاني راقية في ألفاظها ومعانيها ذات مواضيع ملتزمة في تعبيرها عن اليومي والاجتماعي إلى جانب نقلها لمشاعر الحب والشكوى والألم، وفي إطار التأسيس لشكل جديد للممارسة الفنية وتصحيح صورة الفنانات ظهر ما يسمى بعسكر الليل وهم جماعة من الشباب الأدباء والشعراء الذين يعملون على مرافقة فناناتهم في مختلف سهراتها لحمايتها من الطُفيليين الذين يطالبون الفنانة بأكثر من الغناء مثل الرقص وتحقيق المتعة للجمهور بأشكال عدة «وهاته الجماعات لا تخلو من أديب قدير أو أدباء يكدحون لنظم الأغاني وتلحينها لدرّة مجلسهم. ومجمع أرواحهم. وربّما تفرّد الأديب الواحد واختصّ بمجلس الواحدة من هذه الفنانات فأذاب روحه وطير سمعتها بأغانيه»⁽¹⁾.

وكان عبد الرزاق كرباكة من فرط هيامه بالفن والفنانات أن كوّن مع جماعة من أصدقائه فرقة من عسكر الليل كانت مصاحبة

(1) أغاني الشعوب العربية، العالم الأدبي، السنة 4، العدد 1، 1933، ص 6.

بالخصوص للفنانة فضيلة خيتمي تقوم على مساندتها وتشجيعها في أيّ مكان تدعى إليه للغناء فما من محلّ أقيم فيه عرس أو ختان أو فرح، إلّا وكان هؤلاء بجانب فنّانتهم يصفّقون لها ويولولون ويهتفون تشجيعاً لها على المزيد من الغناء والطّرب وقد «شاهده الهادي العبيدي في حفل من حفلات فضيلة (1927) بجبّته وطربوشه وهو يكثر من التّصفيق والهتاف مع «كبانة البراشن» فاشمأز منه وكرهه كرها شديداً قبل أن تتوطّد صداقتهما فيما بعد، خاصّة في جلسات «تحت السّور» اليوميّة»⁽¹⁾.

هكذا اتّسمت العلاقة التي تجمع بين الفنّان والمجتمع بالانفصال والقطيعة في ظلّ إصرار المركز على تهميش هذه الفئة، فشكّلت بالتّالي عالمها الخاصّ وخلقت منظومتها القيمية والمعياريّة التي كرّست هذا الموقف السّلبى، وعانت الأغنية طويلاً من عزوف المثقّفين عنها وانصرافهم عن تزويدها بالنّصوص والألحان، أمّا الوسط الذي تولّد فيه فلا يقلّ عنها تهميشاً خاصّة أنّ القائمين عليها كانوا من الأميين الذين عمّقوا وضعيّتها السيّئة "وما هذا إلّا من كسل الفنّان الشرقي ومن احتقار المثقّفين للفنّ واعتباره أداة لهو وتسليه، فجهل المثقّفين بالفنّ واحتقارهم إيّاه أخرج لنا فنّانين جاهلين أغلبهم لا يفهم من الشّعر الذي يلحنه إلّا أنّه كلام موزون يصلح أن يتغنّى به فيلحنه حسب مزاجه وحسب ما وجد من الأنغام في تلك السّاعة لا يهّمه غرض الشّاعر ولا معنى الكلام وكان من الواجب أن يكون متساويي الثقافة متساويي المواهب»⁽²⁾.

رشيد الذوّادي، جماعة تحت السور، تونس، الشركة التونسية لفنون الرسم، 1975، ص 112.

(2) علي الدوعاجي، الفن يتقدم، الزمان، 31 مارس 1936.

وقد آمن المبدعون خلال الثلاثينات بالدور الذي يلعبه الفن في حياة الأمة فهو المرأة التي تنعكس عليها آمالها وأحلامها وهو لسان شعورها وترجمان قيمها وأنماط تفكيرها "الفنون الجميلة في نظر الفلاسفة وعلماء الاجتماع مرآة صقيلة تنعكس عليها نفسية الأمم ويستدل بها على سمو روح وأخلاق الأمة التي تصدر عنها أو انحطاطها. والغناء في مقدمة تلك الفنون بل هو نقاب شفاف جدًا ينم أكثر من سواه عما تنطوي عليه الأمم ويختلج بين جوانبها"⁽¹⁾.

كان الفضل العظيم لعبد الرزاق كرباكة يتمثل في المجهود الذي بذله للنهوض بالأغنية التونسية مما كانت غارقة فيه من ميوعة وابتذال، وذلك من خلال تطهيرها من السماجات والارتقاء بمواضيعها التي عكست ألوانا من حياة الشعب التونسي. فحرص على حسن انتقاء العبارة وتوظيفها بشكل يسمو بعقلية الجمهور ويرتقي بذوقه الفني، وبذلك تمكنت قصائده الغنائية التي تنوعت بين فصيح وعامي وشعبي من تحقيق المعادلة التي تجمع بين البساطة بعيدا عن التعقيد والسمو في العبارة والرقى في الصورة الشعرية.

أبرز خصائص القصيدة الغنائية عند عبد الرزاق كرباكة

يعد الشعر الغنائي واحدا من أقدم أشكال نمو الإبداع في فن القول، ومنذ أرسطو جرت التقاليد على تمييزه بوصفه واحدا من الأنواع الشعرية الثلاثة؛ الملحمي والدرامي والغنائي. وقد كشف الشعر الغنائي عن مختلف خصائصه وذلك من خلال تطوره عبر عشرات القرون وفي ظروف تاريخية مختلفة.

(1) الهادي العبيدي، مقدمة الفوج الأول من أغاني كرباكة، (سبق ذكره)، ص 2.

فابتدأ الشعر الغنائيّ العربي في صورة أغانٍ وحدائيّات ثمّ تطوّر إلى ما يعرف اليوم بإسم القصائد الشعرية وتعدّدت أغراضه، ويعرّف هررد Herder الشعر الغنائيّ بأنّه «التعبير المباشر الكامل عن الانفعال بأعذب لغة وأخصرها»⁽¹⁾، وينطبق هذا المعنى على كلّ شعر يعبر عن الانفعالات الشخصيّة للشاعر حيث تتفجّر فيها أعمق مشاعره.

إنّ مزية كرباكة تتمثّل بالخصوص في قدرته على ابتكار المعاني الطريفة والعبارات الرقيقة التي تتماشى مع طبيعة الموضوع الذي حرص هذا المبدع على العناية باختياره، وينبغي أن ندرك أنّ القصيدة الغنائيّة يجري التعبير فيها عن الإحساس المباشر الذي أثارته في نفس الشاعر ظاهرة معينة في الطبيعة أو الحياة، فكانت مواضيع الحب والغزل والهجر والعتاب الأكثر شيوعاً في أغانيه، وانفتحت على أبعاد إنسانيّة ومشاعر راقية وخالدة «ومع ذلك فإنّ هاته الأغاني لا تخلو من الغزل والتشبيب ولكنّ غزلها وتشبيبها مناسب لهاته الروح العامّة من المميّزات الذاتيّة والإحساس الخاصّ والملابسات الزمانيّة والمكانيّة. فهي أغاني وترنمات يوجد حقيقي مبصر يرى الأشياء السّاحرة ويصفها كما هي في نفسه وكما في عينيه وكما في قلبه»⁽²⁾.

وتشكّل الذات محور القصيدة الغنائيّة وحافز انبثاقها داخليّاً، وقد طرّحت في نظريّة الأنواع الأدبيّة وتحليل الخطاب والشعرية

(1) كلنث بروكس ويليام ويمزات، النقد الأدبي الحديث، ترجمة حسام الخطيب ومحي الدين صبحي، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، الجزء الثالث، 1976.

(2) أغاني الشعوب العربية، العالم الأدبي، (سبق ذكره)، ص 5.

مع جيرار جينيت⁽¹⁾ تصوّرات مغايرة أعادت قراءة الغنائية، حيث يتحدّد الغنائي بأنّ أنا - الأصل فيه هو الشاعر نفسه، ذلك الذي يتكلّم في خطابه بملفوظ واقعيّ، وهو السبب الرئيسيّ الذي من خلاله نتلقّى القصيدة باعتبارها نصّاً أدبيّاً، أكثر من كونها نصّاً تمثليّاً، سرديّاً أو درامياً نتلقّاها لكونها ملفوظ لذات متلفظة. وقد حدّد إليوت Eliot الغنائيّ بأنّه هو الشّعر الذي نستمتع فيه إلى صوت الشّاعر نفسه يخاطب نفسه، فالشاعر لا يسعى في رأي إليوت للتّواصل مع الآخر وإنّما يتلخّص هدفه في تأليف القصيدة وتوضيح المشاعر المبهمة التي دفعته إلى التّأليف.⁽²⁾

وتجدر الإشارة هنا إلى ارتباط الغنائية بشكل عام بالموسيقى الخارجيّة والإيقاع الداخليّ معاً، وبهذا الاعتبار ارتبط هذا النّوع من الشّعر في الوعي الثقافيّ والنقديّ العامّ بالموسيقى والغناء، مع العناية المكثّفة بالصورة الشعريّة، وقد توخّى كرباكة أسلوباً أدبيّاً راقياً وحلّت الصّورة الشعريّة الأنيقة والبسيطة محلّ الصّور الحسيّة والإباحيّة، وبذلك تمكّن من النفاذ مباشرة إلى نفسيّة المتلقّي والتواصل معه، والدليل على ذلك الشهرة التي حقّقتها أغاني من قبيل «ما ثنها» و«يا هاترة بالعين» و«يا محرمتها» و«يفيق الحب» و«من توه خير يا حواء» و«قولوا لحواء» و«مكتوب» وغيرها من الأغاني التي يضيق المجال عن ذكرها جميعاً، وفي كتاب «أغاني كرباكة» وفي مختلف الصّحف الصّادرة خلال تلك الفترة ألوان عديدة منها بوّأت كرباكة منزلة رائدة في مجال تطوير

(1) جيرار جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة عبد الرحمان أيوب، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط 2، 1986.

(2) غنيمي هلال، النقد الأدبيّ الحديث، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 5، 1971.

الأغنية التّونسيّة بشهادة معاصريه، ويقول أحدهم «أمّا انتصاراته المطردة وفتوحاته المتوالية ففي غزله العنيف الذي يكاد يعطي قارئه رواية غرامية كاملة المعاني والمباني فيها المغامرة والاقتحام وفيها التّضحية والفداء. وفيها الهجر والوصل والعشق والحنين. ولقد سلمت مقطوعاته هذه من تكلف الإعراب والفصاحة إلّا في القليل وقد جنح به أدبه ومطالعته للنصوص الفصحى إلى اختيار اللفظ الرّنان الذي لا يصادم ما هو عليه من لحن وقد يقتبس المعاني السهلة المشرقة من الفصيح فيمازج بينه وبين مدارك لغة الشّعب الوسطى فيصيب الغرض أحسن إصابة»⁽¹⁾.

لم يقتصر تجديد كرباكة على تطوير معاني الحبّ والغزل والطبيعة بل إنّ طرق كذلك مواضيع طريفة لم يكن للأغنية سابق عهد بها استمدّت مادّتها من شواغل الشّعب اليوميّة، وبذلك انفتحت الأغنية على الحرف والصنائع، نذكر على سبيل المثال أغنية «البلغة» التي استدعت من كرباكة تعلّم المصطلحات التي يستعملها أصحاب هذه الحرفة حسب تأكيد صديقه مصطفى خريف، وهو يقول في جزء منها:

وَأَنْتَ يَا مَعْلَمُ مُوشِي * نَوْعَ الْبَلْغَةِ مَحْتِمُ

مِنْهَا كَيْفَ تَحِبُّ تُؤْلِمُ * كَنَّاثِرٍ وَسَبَّابٍ يَزْدَادُو

اللي يحبّ اليوم يَخْدِمُ * وَيَنْوَعُ صَنْعَةَ بِلَادُو⁽²⁾

(1) مصطفى خريف، كرباكة والأدب الشعبي، الثريا، أفريل 1945، ص 18.

(2) عبد الرزاق كرباكة، أغنية «البلغة»، الفوج الأول من أغاني كرباكة، (سبق ذكره)،

هكذا تجاوزت الأغنية عند كرباكة وظيفة التسلية والترفيه لترتبط بأغراض تعليمية ونقدية، وتحمل مضامين اجتماعية مستمدة من الواقع اليومي للشعب التونسي، ومن ثمة تحول هذا القلب إلى قناة استغلها الباث لتمرير أفكاره ومواقفه التابعة من طبيعة تفاعله مع ما يحيط به من أحداث إلى المتقبل لتوعيته وتبصيره بحقائق الأمور، وبالتالي تغيرت مواضيع الأغاني على يد كرباكة وصحبه بظهور «الأغنية الاجتماعية» التي لم تعرف من قبل فنظمت مجموعة من الأغاني التي تتعرض لكثير من المواضيع الاجتماعية الهامة كالزواج وغلاء المهور والحض على إحياء الصناعات التونسية القومية والإشادة بخيرات البلاد التونسية وما تنتجه تربتها من تمر شهّي وغلّال ناضجة (...) ووضعت للأُم ما تناغي به طفلها ولطفّل والبنت ما يناجيان به أمهما الحنون ممّا لا عهد لتونس به من قبل»⁽¹⁾.

حاول كرباكة من خلال قصائده الغنائية إخراج الأغنية التونسية من طابع الجمود الذي سيطر عليها طويلا وتحديث هياكلها. فاستضافت مواضيع مختلفة وبذلك عبّرت عن رؤية مبدعها وقوامها التمرد على السائد والمألوف الذي جعل الأغنية مخاضا لنفوس مريضة وعقول عاجزة، كما سعى كرباكة إلى تطوير شكلها من خلال التوسّل على سبيل المثال بالقوالب البدوية وتطويرها للتعبير عن شواغله ومصادقا لذلك ما قام به في أغنية "الراز" ويقول فيها:

وَإِزِي الْغِنَمَ يَا قَايِدَ فِي الْوَلْجَا

(1) الهادي العبيدي، مقدمة الفوج الأول من أغاني كرباكة، (سبق ذكره)، ص 5.

وَسِنِي الْجِلْمِ الْيَوْمِ عَرَسِ الْمَرْجَا

(...) نَجَعُ تَوَرَّدُ - وَاللِّي سَمَعُ فَزَعُ جَا يَتَزَرَّدُ

الْجِلَامُ وَالْكَرَاعُ وَاللِّي يَعْقُدُ * وَذِرْ الْخَنِيَّةَ اللَّيْلِ بَدَا يَتَهَجَا

عِيدُ الصُّوَيْفَةِ الْحَالِ فِيهِ تَقْعُدُ * بَيْنَ الْبُيُوتِ وَعَرَسُو بِالْفُرْجَةِ⁽¹⁾

أكد العديد من الباحثين أنَّ كرباكة كان مجدداً في القوالب الفنية التقليدية، وقد مثل ميدان الشعر الشعبي تحدياً بالنسبة إليه حتى أنه لم يكتف بترسم خطى رواد هذا اللون الفني وتطويع القوالب الشعبية والبدويّة بل إنه تجاوز مستوى التقليد إلى السعي للتجديد والإضافة، ومما ساعده على ذلك إتقان لغة أهل البادية، وقد أكد مصطفى خريف هذه السمة المميّزة في قوله: «ذلّكم أيها السادة الأفاضل والسيدات الفضليات هو الفتح الأوّل الذي تمّ بعضه على يد كرباكة وكان فيه رائدا يغامر وحده فيصيب النّجاح حيناً ويصيبه الفشل حيناً آخر»⁽²⁾.

تعددت نشاطات كرباكة في جميع الألوان الإبداعية، «فكرباكة شاعر وكاتب وزجال وروائي وصحفي وقصاص كلّ يوم وهو في شأن! ولم يكن في جميع أضرب أدبه بالفاتر الإنتاج بل أنّ جميع شعره وترسله ونثره يفوق المتوسط ومن يدري فلعلّه قد كان يصبح نابغة فنّه لو ثابر على لون واحد ممّا يعالج»⁽³⁾، على حدّ عبارة زين العابدين السنوسي وكانت له صولات وجولات في كافة الميادين

(1) عبد الرزاق كرباكة، أغنية «الزّاز»، الفوج الأوّل من أغاني كرباكة، (سبق ذكره)، ص 14.

(2) مصطفى خريف، كرباكة والأدب الشعبي، الثريا، أفريل 1945، ص 18.

(3) زين العابدين السنوسي، عبد الرزاق كرباكة، التّجديد، أكتوبر 1961.

الفنيّة ولعلّ مجال الشعر الغنائي أهمها حيث أسهم في تطوير القصيدة الغنائية التونسية ووسمها بأسلوب خاصّ يعتمد على استلهاهم الواقع الذي يحيط به فيستمدّ منه مادّة ويستقي مواضيعه، ولعلّ الناظر في مدوّنة أغانيه يتأكّد من ذلك إذ أنّه كان من الرّواد الأوائل لنادي الرّشيدية فشجع هذه المشروع، ونظم نصوصا شعريّة راقية العبارة سامية المضمون، وقد أكّد هذه الرّؤية الفنيّة في قوله: «أنتم تتغنّون على توقيع. وأنا أغني على توقيع آخر! أنتم تستلذّون أصداء لحن الأوتار التي أجهدتم نفوسكم وأرهقتم قرائحكم في تنسيقها وانسجامها، وركبتموها على قضبان من حياة ليست هي الحياة، وأنا أستلذّ أصداء لحن الأوتار المشدودة على صميم قلب الحياة. أنتم تتغنّون بما يمكن أن يكون وأنا أغنّي بما هو كائن»⁽¹⁾.

عاش كرباكة أزمة حقيقيّة لم يكن يعرف فيها الالتزام بموقف بعينه، ولقد يبلغ به الأمر أحيانا حدّ التّطرّف في الثّورة والمبالغة في التّمرد. وقد أثر ذلك في تجربته الإبداعية تأثيرا شديدا فتقلّ بين مختلف الألوان الأدبيّة ومارسها جميعا في محاولة للتّغيير عساه يطفئ بذلك ظمأ نفسه المسكونة بحبّ الأدب والفنّ حدّ النّخاع. فعانى محنة الإبداع وتكبّد مشقّته، وإذا ما سئل كرباكة «هل صنعت شيئا جديدا؟ هل نظّمت قصيدا؟ - لا: أنا عدلت عن الشّعر. أنا أشتغل ببيع الصّوف والخرفان وأنا ذاهب إلى القيروان غدا لأشتغل بمكاسينا المهملة. المهملة من أجل الشّعر. ومن الغد... كيف؟ أنت هنا؟ ألم تذهب إلى القيروان؟ ألسنت تبيع الصّوف والخرفان؟

(1) أبو القاسم محمد كرو، عبد الرزاق كرباكة، (سبق ذكره)، ص 11.

الصّوف والخرفان. أنا شاعر. خلقت شاعرا وسأبقى شاعرا على وجه الدّهر»^(١).

الخاتمة

بناء على ما تقدّم نؤكد المجهود الذي بذله كبراة لتخليص الأغنية التّونسيّة من التّهميش الذي كانت تعاني منه منذ بداية القرن العشرين ممّا أدّى إلى نفور المبدعين منها، فتركت من ثمّة بين أيدي شزيمة من الفنّانين والملحنين وواضعي الكلمات يعبثون بها، فيسيؤون للذّوق السائد هذا ما شرّع لإقصائهم باعتبارهم يشكّلون خطرا على المنظومة القيمية للمركز في ظلّ ظهور أغان سخيفة ومائعة. وكانت ريادته في مجال الشعر الغنائي فخلف تراثا من القصائد الغنائية التي شكّلت نقلة نوعيّة في هذا المجال كان لها أعظم الأثر في نهضة الأغنية التونسية.

عبث كبراة بالقيم والمعايير التي سنّها المجتمع ومن ثمّة تلخّصت حياته في الإبداع والخمرة والمرأة حتّى وافته المنية يوم 15 مارس 1945 بشكل مفاجئ ومثلما كان يشتهي وهو في أحضان إحدى الفنّانات يبادلها حبّا بحبّ والموت ثالثهما. فكان مشهد وفاته اختزالا لفلسفته التي يدعو فيها إلى الاستمتاع بالحياة واقتناص لحظات المتعة فيها، وهذه الأبيات التي أوردها زين العابدين السنوسي:

في فرش وثيرة لم تفترش للحرم
ما بين تفاح الخدود العاطر الموسّم

(١) - عثمان الكعاك، ذكريات عن صديق، الشّريا، أبريل 1945، ص 26.

وبين رمان النهود الأرج المكدم

حتى تولى الليل في خميسه المنهزم⁽¹⁾

ولم يترك من بعده خلفا فقد عاش حياة العزوبية في كنف الحرية المطلقة ذلك أنه كان ينفر من قيود الارتباط ويرفض الالتزام بالمؤسسة الزوجية التي تشكل خطرا يهدد سلطان الأدب والفن، ومن ثمّة عاش مسكونا بحبّ الإبداع ومارس مختلف الألوان الأدبية الشعرية والنثرية والصحفية والمسرحية بالتالي فقد أخلص لهذا الهوى الذي سكن ذاته ولم يرتض له بديلا فعاش بوهيميا ومات كذلك.

(1) زين العابدين السنوسي، من نبغاء الأدب التونسيّ الذين فقدناهم عبد الرزاق كرباكة، الندوة، سبق ذكره، ص 5.

المصادر والمراجع

المصادر

كرباكة، عبد الرزاق، الفوج الأول من أغاني كرباكة، طبع على نفقة الشاذلي الزواق الكتبي، تونس [د.ت]

المراجع

الكتب

- 1 - بروكس، كلنيث ويمزات، ويليام، النقد الأدبي الحديث، ترجمة حسام الخطيب ومحي الدين صبحي، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، الجزء الثالث، 1976.
- 2 - جينيت، جيرار، مدخل لجامع النص، ترجمة عبد الرحمان أيوب، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط 2، 1986.
- 3 - الذوادي، رشيد، جماعة تحت السور، تونس، الشركة التونسية لفنون الرسم، 1975.
- 4 - العبيدي، الهادي، تحت السور فصول في التجديد والإصلاح، تونس، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، (د.ت).
- 5 - العبيدي، الهادي، مقدمة الفوج الأول من أغاني كرباكة، تونس، طبع على نفقة الشاذلي الزواق الكتبي، (د.ت).
- 6 - كرو، أبو القاسم محمد، حصاد العمر، تونس، دار المغرب العربي، ط 1، المجلد 2، 1998.

7 - كرو، أبو القاسم محمد، عبد الرزاق كرباكة، سلسلة أعلام
المغرب العربي، تونس، 1965.

8 - هلال، غنيمي، النقد الأدبي الحيث، القاهرة، مكتبة الأنجلو
المصرية، ط 5، 1971.

المقالات

1 - أغاني الشعوب العربية، العالم الأدبي، السنة 4، العدد 1، 1933.

2 - خريف، مصطفى، كرباكة والأدب الشعبي، الثريا، أبريل
1945.

3 - الدوعاجي، علي، الفن يتقدم، الزمان، 31 مارس 1936.

4 - سعادة، محمد، الإنتاج الموسيقي التونسي ماضيا وحاضرا،
الحياة الثقافية، السنة 23، العدد 95، ماي 1998.

5 - السنوسي، زين العابدين، عبد الرزاق كرباكة، التجديد، أكتوبر
1961.

6 - السنوسي، زين العابدين، من نبغاء الأدب التونسيّ الذين
فقدناهم عبد الرزاق كرباكة، الندوة، السنة 1، عدد 6، جوان
1953.

7 - الكعاك، عثمان، ذكريات عن صديق، الثريا، أبريل 1945.

عبد الرزاق كرابكه صحفيا

رشيد القرقوري

إن ذكر اسم كرابكه فإنه يتبادر إلى الذهن صفته شاعرا غنائيا يصدق بكلماته أشهر الفنانين كعلي الرياحي وفتحية خيرى وغيرهما. أو ممثلا وملقنا أو كاتب تمثيليات ومسرحيات مثل عائشة القادرة. بل شاعرا افتك صفة أمير الشعراء افتكاكا.... فقد بدأ حياته الثقافية بكتابة الشعر والمسرح انطلاقا من العشرينات... ثم تنتبه إلى أنه صحفي له قلم محترم خاض في قضايا مختلفة كالقضايا النقابية وبعث النقابات لأهل الحرف والصناعات فحياته القصيرة التي لم تبلغ نصف قرن قد زحرت بالإنتاجات الفنية والصحفية التي تستحق النظر فيها.

لكن من هو عبد الرزاق كرابكه ؟

نريد بهذه المداخلة وصفا للشخص ولنشاطه الصحفي دون حكم أو تقويم ونريد البحث عما ميزه عن غيره من الصحفيين في عصره وما أضافه إلى المشهد الصحفي في تلك الفترة.... إنه مثقف تونسي من مواليد الحاضرة في السنة الأولى من القرن العشرين وانتمى لجماعة تحت السور وكتب للمسرح والأغنية حتى لقب بشاعر الغناء والمسرح وساهم مساهمة فعالة في صحافة الثلاثينات حتى خصصت له مجلة الثريا عددا خاصا به في أفريل من سنة خمس وأربعين... اثر وفاته.

وأجداده أندلسيون جاؤوا إلى تونس إثر سقوط بلادهم في أيدي المسيحيين...إنهم من مدينة كراباكه قرب مدينة مرسية.. وفي شمالها الغربي بالتحديد...قدموا سنة ست وست مائة وألف فحافظوا على لقبهم كراباكه وعلى صناعة الشاشية التي أتقنها.

كتب في جريدة المضحك من سنة عشرين وجريدة لسان الشعب وصار رئيس تحريرها سنة اثنتين وثلاثين.

وكان له نشاط مسرحي غزير في فرق مختلفة كفرقة الهلال سنة عشرين وجمعية الآداب بعد ذلك بستين ثم فرقة الجوق الكاملي سنة أربع وعشرين بل كتب لها نصوصا مسرحية كأمية المهدية وعائشة القادرة وولادة وابن زيدون...

وهو ما جلب له اهتمام النقاد مثل المرحوم أبي القاسم محمد كرو في كتابه عبد الرزاق كراباكه المنشور سنة خمس وستين.

كما اهتم به في كتابه حصاد القلم الصادر سنة أربع وخمسين.

كما خصص له محمد زين العابدين السنوسي حيزا مهما في كتابه مختارات من الأدب التونسي في القرن الرابع عشر الصادر سنة أربع وعشرين..

ولعل أهم قضية شغلت كراباكه هي مشكلة الصناعيين والحرفيين فسخر قلمه ليدافع عنهم ويدعو إلى بعث نقابات مهنية تدافع عن مصالحهم مما أثار تأفف السلط الاستعمارية وأصحاب رأس المال.

إننا نلاحظ فترتين مهمتين في حياته..العشرينات والثلاثينات.. فقد اهتم في الأولى بالمرح خاصة كتابة وتمثيلا وتلقينا فاشتغل مع جورج أبيض إثر عودته من رحلة تمثيلية إلى الجزائر والمغرب.

أما في الثلاثينات فقد اهتم خاصة بالصحافة دون أن يهمل المسرح والشعر وكتابة الأغاني... فقد اهتم بتحرير المقال الصحفي ورئاسة تحرير الجريدة التي يكتب فيها..

إننا نشعر بأنه ليس شيخا زيتونيا مغلقا رغم درسه في الزيتونة حيث حرم من شهادة التطويع لأنه اعتبر من المستهترين على طريقة جماعة تحت السور على حد اقتناع الشيخ حميدة بيرم الذي اعتبره مناصرا لحبيبة مسيكة وفضيلة ختمي وبيرم التونسي.. فقد أسس مع الأولى أول فرقة تمثيلية تونسية تسافر إلى الجزائر والمغرب وتساهم في تركيز المسرح هناك سنة احدى وعشرين ولم يكن نشاط من هذا النوع ليرضي شيخ الزيتونة الذي قرر حرمانه من التطويع رغم أنه درس عند شيوخ مرموقين شهدوا بذكائه مثل الشيخ محمد مناشو. وعلى كل فقد اتضح نبوغه في لغته وأسلوبه الأدبي وفي مقالاته التي نشرها في الصحف التونسية خاصة في الثلاثينات حتى أن صديقي المرحوم محمد صالح بن عمر كان يقول لي منذ عام تسعين أخاله صادق التكوين.

فقد دافع الرجل في جل مقالاته التي نشرها عن الحرية والفن وأهميتهما في بناء المجتمعات السليمة.. والمتتبع لحياته الثقافية ينتبه إلى أهمية الثلاثينات في حياته الصحفية...

نحن إزاء صحفي غير كلاسيكي وغير عادي بل متعدد المواهب فهو لا يكتفي بتحرير مقاله الذي سينشره في الجريدة اليومية كما يفعل غيره بل كثيرا ما يكتب معه كلمات أغنية أو فصلا في تمثيلية أو قصيدة شعر مطالبا بحقه في لقب أمير الشعراء...

فهو لم يبايع محمد الشاذلي خزندار أميراً للشعراء كما فعل غيره بل راهن محمد زين العابدين السنوسي أن يستفتي الناس في الأمر.. فأنجز استفتاء صحفياً انتصر فيه كراباكه وقد شارك فيه الشابي الذي صوت لكاراباكه. وقد سجل عثمان الكعاك كل هذا ونقرأ مقالا لمحمد بورقعة في هذا المعنى في الثريا..س 2..ع 4 ص 33.....

وكما أسلفنا فقد استهل نشاطه الصحفي في جريدة المضحك وهي جريدة فكاهية تبرز العيوب وت نقد من خلال الضحك وقد وجد فيها متنفسا في مطلع حياته الصحفية واثرب الحرب الكونية الأولى وكان يجيد هذا النوع من النقد الساخر حتى أنه أختير رئيس تحرير الجريدة لما استقال حسين الجزيري من هذا المنصب. ويكتب محمد بورقعة عن مروره بالجريدة ما يلي...كان ينظم شعرها وينشر أخبارها ويوحي إلى مصورها ما يراه لائقا للنشر بالريشة من حوادث الأسبوع....ص 12

ويعتبر صاحب الجريدة البشير الخنقي أن كراباكه في مقالاته المنشورة بها بعنوان حديث الثلاثاء كان يحاكي طه حسين في مقالاته حديث الأربعاء التي جمعها فيما بعد في كتاب.

كان كراباكه مصرا على البقاء والنشاط في المجال الصحفي وإن كثرت مشاغله الفنية كالتمثيل وكتابة كلمات الأغاني ونصوص المسرحيات. لذا نجده سنة اثنتين وثلاثين رئيسا لتحرير جريدة الزمان محاولا الإرتفاع بها من حال إلى حال بل أعطاهها هدفا واضحا وقضية مخصوصة وهي الدفاع عن العمال وعن الكادحين والمعذبين في الأرض أصحاب المهن اليدوية والصناعات التقليدية الصغيرة فدعا من خلال مقالاته في جريدة الزمان إلى بعث نقابات تحمي هؤلاء العمال من استغلال الأعراف بل اقترح مدهم بقروض

صغيرة من قبل التعاضدية التونسية للفنون والصناعات يمولون بها شراءاتهم للمواد الأولية لصناعاتهم.

وكان يتصل بالدوائر الرسمية وبالحجرة التجارية التونسية دفاعا عن الصناعات التونسية وأصحابها المهددين بالفناء والإندثار. وكان للعمل الصحفي في رأيه دور مهم لخصه في بيت شعري هو :

شأن الصحافة أن تسير شعبها....نحو الهدى ألا أن تسير شعبها

وكان يضع هذا البيت في أعلى الصفحة الأولى من كل أعداد جريدة الزمان..فنحن اذن إزاء صحفي متمكن من فنون أخرى لم تنسه دوره الصحفي المتمثل في النضال والإرتقاء بالنص الصحفي درجات مهمة في الجودة بل واصل كراباكه دوره النضالي حتى في كتابة الأغنية فقد وجد نوعا من الأغاني المائعة المفسدة للذوق العام فأنتج نصوصا تخالفها وتسد الطريق أمامها لأن فيها حكمة وموضوعا ودعوة تشد السامع...فانتشرت أغانيه وقتها خاصة وقد لحنها مبدعون كبار بل تكونت حلقة من الشعراء منهم جلال الدين النقاش ومحمود بورقيبة وغيرهما ساهموا في الإرتقاء بالأغنية التونسية فانتشرت بين الناس وجبت ما قبلها من الذوق الفاسد نذكر منها أغنية علي الرياحي على سبيل المثال : شكيت وأنا ماريت...

وقد كان لفتحية خيرى أغنية عن المنصف باي كتبها كراباكه

يقول فيها :

بابورينو سرى ع النسمة	شرق موج الحي
هازز فوقو عز الأمه	سيدي المنصف بي
يا بابور اسم الله عليك	اتهنى واطمان
اليوم العزة حلت بيك	والهمة ولامان..

وعند عزل الباي بعد أشهر انتشرت الأغنية لأنها صورت الحادثة قبل وقوعها وعدت استشرافية...

هكذا كان كراباكه مشاركا شعبه في كل محنه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية يعبر عن كل ذلك في مقالاته وأشعاره وأغانيه التي صدحت بها فتحية خيري وغيرها وفي تمثيلاته الاذاعية ومسرحياته.

رحم الله عبدالرزاق كراباكه فقد كانت حياته على قصرها مكتظة بالإنتاج والإبداع والمواقف الوطنية الجريئة.

عبد الرزاق كرباكة

في مرآة محمّد الصالح المهدي

أُس السّابي

في العدد الخاص بأربعينيّة عبد الرزاق كرباكة نشر محمد الصالح المهدي مقالا في الثريا ذكر فيه نبذة من حياة صديقه مختصرة على غير عادته في التراجم التي نشرها لغيره كزين العابدين السنوسي أو محمد الجعايي أو محمد علي العنابي أو سعيد بوبكر، إذ اكتفى بذكر بعض الأخبار المختصرة والأسماء التي كانت معلومة للسابقين أو تولّى شرحها والتعريف بها في مقالات أخرى، لذا رأيت من المفيد أن أتناول بعض الأسماء والأحداث والرموز الواردة في النصّ المهدي بالبيان استنادا إلى ما ترك مخطوطا عثرا عليه في المكتبة الوطنية ولم نشره بعد، نُشر مقال المهدي في مجلة الثريا السنة الرابعة العدد الثاني بتاريخ أفريل 1945 وأعدت نشره في كتاب «أعلام الصحافة العربية في تونس قبل الاستقلال» الذي جمعت فيه ما وقع تحت يدي من تراجم منشورة ومخطوطة للصحفيّين التونسيّين التي أعدها المرحوم للنشر في كتاب كان يزعم تأليفه عن تاريخ الصحافة في تونس ولكن القدر لم يمهل.

تتلمذ عبد الرزاق كرباكة للشيخ محمد مناشو المدرّس والكاتب في عدد كبير من الجرائد والمجلات، وعلى يديه تخرجت أجيال من الصحفيّين والأدباء والشعراء من بينهم مترجمنا ونور الدين

بن محمود والهادي العبيدي ومحمد الحبيب ومحمود بورقيبة وغيرهم إلا أنه لم يحظ الشيخ لحدّ الآن بترجمة وافية تكشف عمق تأثيره في جيل من الأدباء والشعراء والصحفيين ومدى مساهمته في تطوير الصحافة التونسية، والمؤسف حقاً أن ذكره شاع في ثمانينات القرن الماضي بعد اتهامه كذباً بأنه سطا على قصة للمنفلوطي نشرها له سليمان الجادوي في «الفوائد الجمة في منتخبات مرشد الأمة» باسم مستعار⁽¹⁾. في ترجماته القصيرة المودعة في أرشيفه في المكتبة الوطنية عرّف المهدي شيخه بقوله: «ولد الشيخ محمّد بن عثمان مناشو عام 1302هـ/ 1884م أندلسي الأصل، تونسي المنشأ، بدأ التعلم في الرابعة من عمره، دخل الجامع سنة 1894م، تحصّل على التطويع سنة 1901م، اشتغل بالإشهاد العام إلى سنة 1910م، وبالتعليم في المدرسة الخيريّة سنة 1911م، شارك في التحرير الأدبي والاجتماعي والسياسي من عام 1903 لمّا أطلقت الصحافة في عهد بيشون بجرائد المرشد والنصيحة والاتحاد الإسلامي... بعد أحداث الزلاّج سنة 1911 ومنع الصحافة من الصدور انقطع الشيخ مناشو للتعليم»، ترك الشيخ عدداً من المؤلفات منها ما نشر ومنها ما لم ينشر ذكرها زين العابدين السنوسي في كتابه «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر»، كما ألّف مسرحيّة «الإنّقام» وقد مثلتها جمعيّة الشهامة العربيّة وهي رواية تقع في فصل واحد⁽²⁾، يقول زين العابدين السنوسي عند حديثه عن أسلوب الشيخ في التدريس: «وكان يحبّ لنا الإنشاء بأساليبه الطريفة والظريفة»⁽³⁾، توفي الشيخ مناشو في شهر جوان 1933، في هذا المعنى يقول المهدي: «من المدرسة القرآنيّة تخرّج المرحوم كرباكة وأنّم دروسه بجامع الزيتونة المعمور ومن بحر المنعم الشيخ محمد مناشو اغترف أدبه وملاً وطابه»⁽⁴⁾، وتتفق المصادر

التي ترجمت لكرباكة أنه لم يتم تعليمه الزيتوني بالحصول على شهادة التطويع حيث غادره سنة 1921⁽⁵⁾ دون ذكر سبب ذلك، وتنفرد الموسوعة التونسية المنشورة على صفحة بيت الحكمة في ترجمتها لكرباكة بالقول: «ولكنّ شيخ الإسلام الحنفي حميدة بيرم حرّمه من شهادة التطويع لما بلغه من ميله إلى الفن واستهتاره على طريقة جماعة تحت السور»⁽⁶⁾.

تجمع المصادر التي تحدثت عن الجانب الاجتماعي والنقابي لعبد الرزاق كرباكة أنه كان من المتحمّسين والمدافعين عن الصناعات التقليديّة وخصوصا صناعة الشاشية التي كتب في شأنها عديد المقالات وكان يسمّيها سيّدة الصناعات لأنه ينحدر من عائلة تحترف هذه الصناعة من ناحية ومن ناحية أخرى قد يكون دفاعه عنها ترجمة لموقف سياسي وطني قال الحبيب شيبوب: «وعندما تأسّس الحزب الحرّ الدستوري في أعقاب الحرب العالميّة الأولى تسارع منخرطوه إلى ارتداء الشاشيّة التونسيّة على حالتها اليوم -دون رتوش أو زخرفة- وأطلقوا عليها اسم الدستوريّة تمييزا لها عن بقية الأصناف الأخرى التركية وغيرها... وقام بالدعاية لهذه النقابة (نقابة الشواشيّة) المرحوم عبد الرزاق كرباكة الشاعر الأندلسي الأصل والمنحدر من عائلة اختصاصها صناعة الشاشية وعمل عملا صالحا مشكورا لفائدة متّجّيها ومروّجها...»⁽⁷⁾، ويضيف الهادي العبيدي قائلا بأن كرباكة: «ساهم مساهمة كبرى في تأسيس جامعة النقابات التونسية للتجارة والصناعات التي ترأسها محمد جمال»⁽⁸⁾.

يقول المهدي إن معرفته بعبد الرزاق كرباكة كانت بدايتها ترشيحه له لعضوية المجلس الإداري لجمعية الكتاب والمؤلفين التونسيين لتتطور علاقته به فيما بعد وتتواصل الصداقة بينهما.

سنة 1932 عُيِّن المهدي رئيس تحرير لجريدة الزمان باقتراح من عبد الرزاق كرباكة الذي شغل المهمة قبله، عن تلك الفترة والظروف التي حَفَّت بتعيينه يقول المهدي في نصّ عنوانه «الزمان» ما زال مخطوطا تحدّث فيه عن أسباب إنشاء الجريدة وتحولها إلى أداة في الصراع بين سليمان الجادوي مرشح اللجنة التنفيذية للحزب الدستوري ومحمد شنيق لرئاسة الحجرة التجارية التونسية والدور الذي أدّاه كرباكة في مقاومة جماعة الحزب القديم وهو أمر لم يقع التعرّض إليه فيما هو منشور عنه، قال المهدي: « كانت حلقات الصداقة والوداد بحكم الجوار متينة الارتباط بين المرحومين عبد الله بدره وأحمد بنيس ونشأ أبناء الرجلين في (حومة) واحدة وهي بطحاء نهج سيدي بوخريصان، لذلك كان أبناء الأوّل أصدقاء لأبناء الثاني وقد كان هذا الوداد سببا في إيجاد صحيفة الزمان بالسعي المبذول من ابن الأوّل (حمدان) إلى ابن الثاني (محمّد) كما تقدّم لإيجاد الجريدة، وممّا يجب أن يضاف إلى ذلك أنّ السيّد حمدان بدره كان مسؤولا عن الشركة التعااضدية للصناعات والتجار التي كان مقرّها بالحفصية في بناية إدارة الغابة الآن (نهج الحفصية عدد 5 تونس) وتلك الشركة تموّلها الحكومة عن طريق بنك التعااضد المالي الذي يديره السيّد محمّد شنيق الذي كان كاهية رئيس القسم الأهلي من المجلس الكبير، وكان إلى جانب ذلك رئيسا للحجرة التجارية التونسية بتونس ويدير ديوانه في الحجرة السيد محمّد (حمادي) بدره ابن عبد الله بدره أيضا،

ورئاسة الحجره وكهاية المجلس الكبير لا يحصلان عفوا بل لا بد من الترشح لهما والناخبون هم التجار وأصحاب الصناعات، ومن هنا لزم أن توجد صحف عربيّة تقوم بعملية الدعاية لفائدة السيّد محمّد شنيق ليصل إلى مكانه أو ليحافظ عليه بعد بلوغه، وهذا ما حصل فعلا حيث عهد إلى السيّد محمّد بنيس من طرف آل بدره بتنظيم حملة دعائيّة لفائدة قائمة المترشح وهي تضمّ جمعا من التجار وأصحاب الصناعات والعمل على فوزها في الانتخابات، لكن هذه القائمة تقابلها قائمة أخرى من المترشحين يزيّنها الحزب القديم وعلى رأسه محيي الدين العدوّ القديم لبنيس فلا بد إذن من إعداد العدة لإقصاء المعارضين لشنيق.

بدأت الزمان تسعى في اختيار من يصلح من الكتاب والشعراء لتنظيم الحملة فكان الذي وقع الاختيار عليه هو شاعر الشباب السيّد عبد الرزاق كرباكة على أن يتناول أفراد اللجنة التنفيذية المحترفين للسياسة بالنقد والتفريع نظما (أزجال، شعر ملحون) ونثرا وكان على رأس القائمة السادة محيي الدين القليبي ومحمد كركر وحسين الجزيري صاحب النديم وسليمان الجادوي مرشح الحزب في الانتخابات.

بدأ كرباكة يعمل في الزمان وقد كتب تحت اسم الجريدة ما يأتي:

اقرأ الجريدة راضيا أو سبّها لا شيء غير الحقّ يرضي ربّها
شأن الصحافة أن تُسَيِّر شعبها نحو الـ هدى لا أن تسير شعبها

وكان في القائمة الشنيقيّة محام شاب قد انجرت له ثروة جديدة من زوجة شابة فرنسيّة هو الأستاذ المنصف العقبي وكان في

القائمة الدستورية محام شيخ هو الأستاذ مصطفى الكعك ولكنّه ضنين بماله لذلك كان أنصار القائمة الأولى ينفقون عن سعة فالبنك والشركة والمحامي الشاب يزودون الحملة بما يكفي من المال والرأي، وأنصار القائمة الثانية يعتمدون على صحيفة النديم وعلى فلول اللجنة التنفيذية التي لم يبق لها من الأنصار إلا القليل خصوصا وحركة الديوان السياسي بدأت تظهر عن طريق صوت التونسي أولا وعن طريق العمل التونسي ثانيا.

كانت الزمان تنشر قصائد كرباكة وملزوماته في التشنيع بداعية الحزب محمد كركر فتقول:

مني أنا كرار التعيسي إلى أخي في الله سي بنيسي
وبعد فالعبد لله المستعان وهو القلاوي قبل والدستوري كان
ومن له في لمة التسترين رتبة آغا في فريق الهاتفين
أتيكم يا صاحب الزماني لأن محيي الدين قد كواني
ويقول مخاطبا صاحب النديم:

حسيننا يا رافع البنديرة وصاحب اللحية في التصويرة
وهللوا وكبروا تكبيرا

وبدأت الزمان تنشر الحوادث التي تشجر بين أنصار شنيق وأنصار اللجنة التنفيذية وفي المقدمة صاحب النديم ومن ذلك (الطرايح) التي (ياكلها) هذا الأخير من طرف من يتصدى لشتهم أو كمزهم في صحيفته كالسادة عبد العزيز العروي وصالح بوسن وحمادي بدرة وغيرهم. وفي شهر ماي 1932 انتدبت للعمل بالزمان فسطرت له برنامجا زيادة عن الحملة الانتخابية التي كنت

أراها وقتية وزائلة وكنت على يقين من انتهائها للأسباب التي شرحتها».

وفي مقال آخر مخطوط لم ينشر بعد عنوانه «كيف تطور الزمان من حملة ضد النديم وبقايا الحزب الدستوري التونسي» يقول عن كرباكة: «وما كاد ينتهي شهر جوان 1932 حتى كان شعر كرباكة قد تضائل أو كاد ينقطع حيث تم انتصار السيد محمد شنيق في رئاسة الحجرة التجارية وكاهية القسم الأهلي بالمجلس الكبير ... وبقي من أنصار الزمان الأستاذ سالم بن حميدة الذي يكتب (قال النديم) واقتصر تحرير كرباكة على (النديم في التقليم)».

تلك بعض المحطات في حياة عبد الرزاق كرباكة التي لم يكشف عنها النقاب لحد الآن ولم تدرس الدراسة الوافية وتتعلق بنشاطه الاجتماعي وميوله السياسية مما كشفت رؤاسته لتحرير جريدة الزمان التي ستصبح فيما بعد جريدة الشباب دعاة التنوير ومساهمته في المعركة بين القديم والجديد في فترة ابتداء فيها الخلاف في الظهور بين توجّهين سياسيين وثقافيين أحدهما آيل إلى الغروب وآخر متحفز للولادة مثله سياسياً الحزب الدستوري الجديد ونقائيا واجتماعيا محمد علي الحامي والطاهر الحداد وثقافيا جماعة تحت السور.

الهوامش

1. انظر في ذلك «السرققات الأدبية في تونس بعد الاستقلال» جمع وتقديم أنس الشابي، دار خريف للنشر 2023، ص 8 و 9.
2. «الحركة الأدبية والفكرية في تونس» للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور طبعة الدار التونسية للنشر 1972، ص 126، عن الشيخ مناشو انظر الترجمة الوافية له في «أعلام من الزيتونة» محمود شمام، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم تونس 1996، صص 67-122.
3. «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر، تراجم صحف مختارة صور» لزين العابدين السنوسي، مكتبة العرب بتونس 1927، ص 275.
4. «أعلام الصحافة العربية في تونس قبل الاستقلال» لمحمد الصالح المهدي، تحرير وإكمال أنس الشابي، نشر نيرفانا تونس 2022، ص 146.
5. عن ذلك انظر المجلد الثاني للأدب التونسي في القرن الرابع عشر لزين العابدين السنوسي، مطبعة العرب 1928 ص 257 و«حصاد العمر» لأبي القاسم محمد كرو، دار المغرب العربي، تونس 1998، المجلد الثاني ص 63.
6. رابطته كالتالي: <http://www.mawsouaa.tn/wiki> عبد_الرزاق_كرباكة.

7. مقال «نقابة الشواشية» في جريدة العقد بتاريخ 1 مارس 2005، نشر صديقنا طيب الذكر الحبيب شيبوب رحمه الله مجموعة من المقالات القصيرة عرّف فيها بالشخصيات والفرق الرياضية والتمثيلية وغيرها غفلا من الإمضاء في الجريدة المذكورة أيام كان صديقنا المرحوم فارس بوقرة رئيس تحريرها.
8. «كرباكة الاجتماعي» الهادي العبيدي، مجلة الثريا السنة الثانية العدد الرابع، أبريل 1945، ص 14.

الفهرس

عبد الرزاق كرباكة الشاعر الفنان 3

محمّد المي

إنشائية الحياة والحب والموت في مسرحية «ولادة وابن زيدون»

لعبد الرزاق كرباكة 5

حمدي الحمليدي

كرباكة ، شاعر الأغاني 15

بقلم الجليدي العويني

عبد الرزاق كرباكة تاريخ وذاكرة! (1945-1901م) 25

رشيد الزواوي

عبد الرزاق كرباكة وسياق التونسية والتجديد الثقافي 39

زهير الزواوي

الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس 67

الحبيب بن فضيلة

عبد الرزاق كرباكة والريادة في تطوير القصيدة الغنائية التونسية 79

استسام الوسلاتي

عبد الرزاق كرابكه صحفيا 97

رشيد القرقوري

عبد الرزاق كرابكة في مرآة محمد الصالح المهدي 103

أنس الشابي

